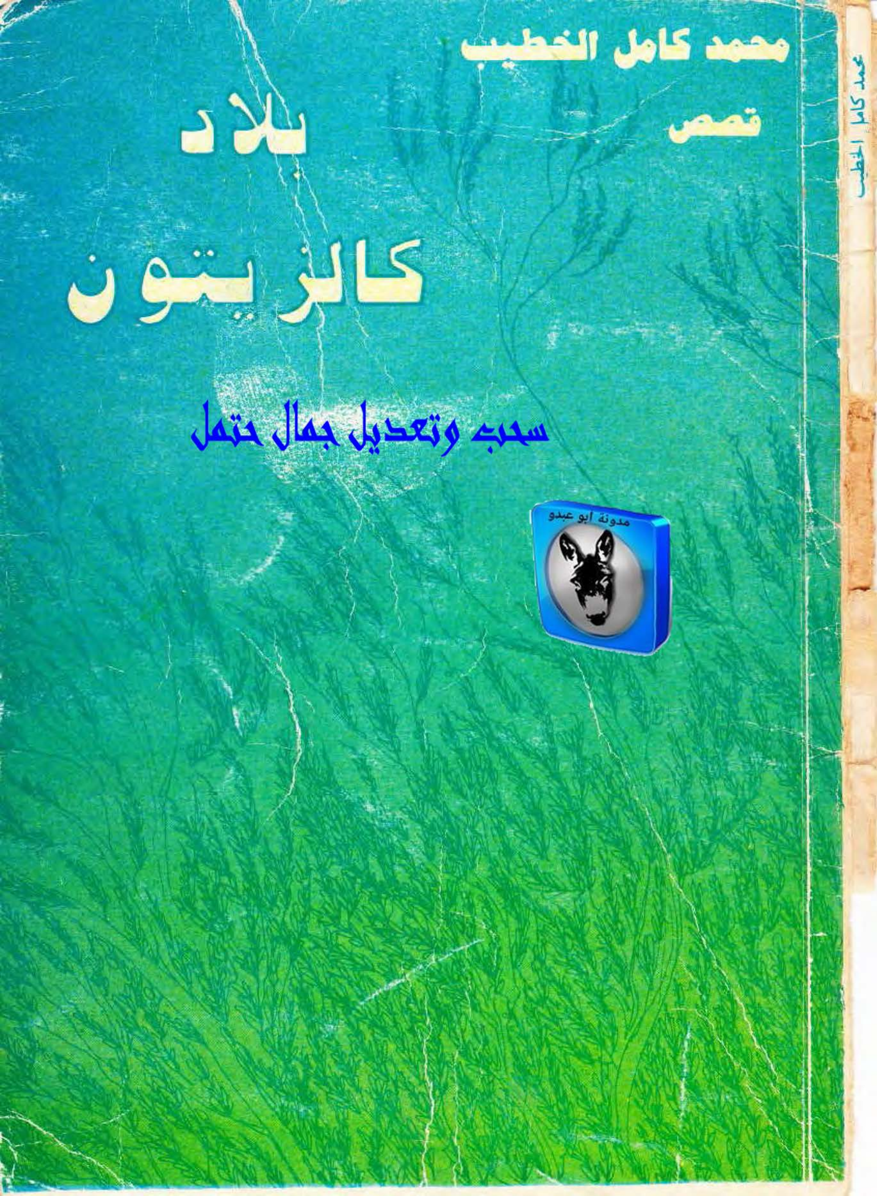

محمد كامل الخطيب
قصص
بلاد
كالزيتون
سحب وتعديل جمال حتمل
مدونة ابو عبدو
محمد كامل الخطيب

محمد كامل الخطيب

بلاد كالزيتون

قصص

منشورات اتحاد الكتّاب العرب
١٩٨٧

رسم الغلاف : ايرين لابيري

بلاد كالزيتون.. بلاد كالليمون

مقدّمة

ومع الأيام ، بدأت أعرف ، أيتها المدن التي تسكن في ذاكرتي انني لا أملك إلا قلبا مشرعا ، كخيمة على البحر ، كجبل مطل على شوارعك وأشجارك ، وهذه الشمس التي هي فوق رأسي ، وهذه الطفلة التي تلعب في قلبي ، وهذه الشموس الندية ، وهــذه الأمــواج التي ترق وتصطخب و ... و ... و ... كلهــا حقــائق ، فالعشــب والمــاء والأشجــار ، لا يمكن أن توجــد ، لا يمكن أن تعــرف ، ولا يمكن أن تكشف عن نفسها ، إلا في قلب أليف كخيمة ، قلب مطل على البحر كشمس سماء صافية الزرقة .

ها أنت ذي أيتهــا البلاد التي تسكن جســـدي ممزقة الثياب ، مقصوصة الشعر كالصبيان ، مبللة بالشمس والبحر

والرصاص ، ها أنت ذي في بهائك الفقير ، بهائك العاري ،، بهائك الذاهب ، بهـــائك الآتي ، ها أنت ذي في سنـــواتك المؤلفة ، سنواتك الماضية ، سنواتك الحاضر ، سنواتك التي تدرجين فيها كدوري في حديقة عامة ، ها أنت ذي تخرجين من ماضيك وتدخلين القلب مضمخــة بالـــدم والذكريات ، مسكونة بالفرح الذي نصنعه ونحن نلعب على ضفة أحزانك وأمواهك ، على ضفة هذا العمر الجميل ، هذا النهر .
العمر الجميل ، هذا النهر .

أيتها القرى البعيدة والقــريبة ، ها أنت تخرجين من أشجارك وصخورك وتدخلين خيمة قلبي . أيتها القرى ها أنا أوغل في خيمة عشبك ، وهـــا أنت ، كأنســا أنت ، في قارة أو محيط زينته بابتسامتك وألمك . زينته بمستقبلك وحزنك الشفاف ، ها أنت تروحين وتأتين ، كامرأة في ثياب البيت . ها أنت تمشين في قلبي ، وهاأنا في دروبك أمشي .

أيتها الأحياء التي تمتد من الرمل ولا تنتهي إلا في دمي، ها أنذا أقف بين سكانك ، لا تعبا ولا مـــتـــلـــئا ، لا نشوان ولا فرحا ، ولكن هادئا كضمير محبيك ، شفـــافا كوجوه

فتيات المدن الساحلية ، ها أنذا ، أقف بين أبنائك ، أصنع ذاكرتي ، أعني مستقبلي ، أصنع نفسي •

ها أنت ذي ترتجفين ، أرى عينيك ترتجفان ، وأرى أسى ، أراه كلما مددت نظري إلى البحر الخريفي الذي يضمني كشوارعك وأحيائك، كقراك وأشجارك، كحجارتك وعشبك •

أيتها البلاد التي تجعلنا ندرك مع الأيام أن العمر قصير كحياة الورود ، هانحن نزداد حبا لهذا العمر القصير في بواديك وحقولك ، في ورودك المشتعلة •

أيتها البلاد : من الذي صنع البحر الذي ولدنا على شاطئه غيرك ، من الذي صنع فرحنا غيرك ، من الذي صنع أحزاننا غيرك ؟ من الذي سيصنع الأيام التي نصنعها غيرك ؟

لا تذكرينا ، أطلقينا من سجونك وأشجارك كحمائم ، من فمك كأغنية ، من عينيك كرفة هدب ، أطلقينا من قلبك كفرحة ومن تنورك كرغيف ناضج ، فنحن العصافير التي تبحث عن شجرة في المساء ، ونحن الورود الحمراء التي تبحث عن غابة ، نحن هم الذين يبحثون عنك •

هانحن نقف على شاطئك الذي ولـدنا ودرجنا عليه ، كأننا نراه للمـرة الأولى . ها نحن كفقـراء البشر في كل مكان ، مجللين بحزننا وكبريائنا ، بقلوبنا الساجية التي هي قلبك، وظهورنا التي تتحمل آلامك وحجارتك، ظهورنا التي تتحمل جلاديك، ها نحن بأيدينا التي تصنع المستقبل والفرح لترابك ، ها نحن نحمـل اسمك راية . وقلوبنـا علامـة ، فاعرفينـا ، وتعرفي علينا .

يا بلاداً شاسعة كالمدى . رحبـة كالفضـاء . شذيـة كالياسمين الدمشقي ، يا بلاداً عطـرة كالليمون الساحلي كيف لنا أن نحبك في هذا الزمن الموّار والمصطخب ، كيف لنا أن نرسو على شاطئك الهـائج ؟ يا بلادا أليفة كلحظات الأسى ، كيف لنا ألا نحبك في هذا الزمن الموار والمصطخب، كيف لنا ألا نغامر على شاطئك المهتـاج ، كيف لنا ألا نطير في غابة أشجارك ، غابة أهدابك ؟

أيها الناس في الأحيـاء والشـوارع والقرى ، في المدن والمدارس والمعامل . أيها الناس الذين هم البلاد التي نعيش فيها وتعيش فينا ، ها أنذا ألهو بأقلامي وأوراقي وكلماتي . ألهو بلغتي ، وكساحر ، أبدّل ألعابي ، أعني لغاتي ، أصنع

من الكلمة وردة ، ومن الوردة حمامة، ومن الحمامة ضحكة، ومن الضحكة أريد أن أصنع خارطتك ، خارطتك أيتها البلاد القاسية ، أيتها البلاد الممزقة .

أيتها البلاد التي تذهب بي لغتهـا ، وأنا فيهـا مسحور أبحث عني ، أمزق الأوراق والأفكـار والكلمات ، أمزق الذكريات والآمـال ، فأجدك !! فبأي اللغـات أصرخ في في سهولك وجبالك !! استنهض مدنك وقراك !! . هذي لغتي تدخلني فضاءك ، وها أنذا مشرع على الفضـاء كعاملك . كسارية في سفينة ، كضحكة في وجه فرحان ، ها أنذا مشرع على المدى ، كقلبي الذي هو قلبك .

أيتها البلاد ، في أعيادك وأيامك ، في محنتك ونهوضك، ماذا نهديك إلا ما تصنعه أيدينا ؟! .

أهديك لغتي ، أهديك حمـامة صنعتها ، كحروفي من تاريخك ، صنعتها بأدواتي ، أعني حروفك وأشجارك، مدنك وقراك ومعاملك ، فاذني لنا بالدخول ، وتقبلي، أو لا تأذني. فلأولادك ، للغجر وللمتسولين وللفقـراء كل الدنيا ، كل شموسك وأفيائك ، كل رصاصك وأشجـارك ، كل الأيام

الآتية ، ونحن ، كهذه القصص، لك . يا بلادا كالزيتون ...
يا بلاداً كالليمون .

محمد

نزهة في الكلمات

•• وكتلميذ دخل المدرسة أمس ، أدخل اليوم إلى الحديقة العامة ، أحمل ، مزهواً ، أوراقي وأقلامي الملونة وأكتب ، فمن أي مملكة تبحث الكلمات ، وفي أي مملكة تسكن هذي الكلمات ، فأنا ـ مثلاً ـ أسكن مساء من الأشجار ، ويداي تبحثان في التراب والأعشاب عن بحر وشمس لا تغيب . لكن بنتاً تلعب قربي في الحديقة تتوقف وتسألني عن الحرية . أبحث في قاموسي ، وكامرأة ريفية رأيتها مرة تطلق الحمام وتنثر الورود والأرز ، أطلق في فضاء البنت والأشجار والأسماك مياه نبع لا يغيض . أعرف أن البنت تعرف أني كاتب يتدرب على الكتابة ويلهو بالأحرف والأزهار ، انني ساحر يخرج من عينيه ـ للبنت ـ حقولا وبلاداً تتلاشى كفقاعة . تسألني البنت أي أشجار أحرق أو أسكن فيها ، فأعطيها بدلة عمل زرقاء ، وأقف عاريا منتظرا !

بنتاً تخرج من ماء الجدول ، ألعب معها فتجد لي عملا أعيش منه ، تسألني البنت عن معنى كلمة « فاشيست » فأريها ظهري ومخبرا يسرق بين الأشجار ويدوس في الجدول ، وأسألها عن الغيم ، فتشير الى الأشجار والى الماء والى سرب حمام يطير فوقنا ، وباليد الأخرى تشير البنت الى فتاة تقرأ في كتاب . وعندها أفتح قوسا في ذاكرتي وأستحضر :

« الطريق من الطريق العام الى قريتي • مزار الشيخ علي الملاجي • ليلى • نهى • أحمد • الزيتون • السنديان • البقص • الخيام • أحمد •• »

أغلق قوساً في ذاكرتي وأشتم هذا الأحمد الذي صار مخبرا وأنظر في عيني البنت التي تسألني عن الحمام فأرنو إلى عينيها وتسألني عن الأشجار فأرنو إلى حمام يطير فوق الأشجار وفوق عينيها . تسألني البنت عن الأرانب فأنظر في الماء . تسألني البنت عن تلك التي تقرأ في كتاب فأرنو الى طفولتي وأرى « جبال من الشجر الأخضر • بلابل • دبق للعصافير • عماد الموسيقي يجرح نهى بالسكين • أمسيات الصف وأنا عائد إلى البيت بخرافي • قدماي تخوضان في

مياه البحر للمرة الأولى ، قدماي تدوسـان العنب ليصنع أبي الخمر . ال ... »

أغلق ذاكرتي وأسمع البنت الصغيرة تسألني عن الحصان فأشير إلى عصفور يعبر سماء الحديقة العامة وأحس بالأسى، تسألني البنت الطفلة عن الأطفال فأشير نحو اعشاب تسألني الطفلة عن الأعشاب فأشير صوب الأشجـار تسألني الطفلة عن الأشجار فأشير باتجاه النـاس تسألني الطفلة عن الناس فأشير الى قلبي ، وأدخل في ذاكرتي :

« بحر . أشجار . أطفال . زيتـون . محمد . ليلى . بثينة . أمي . نبع الماء . خرفان . أرانب . زيتون . سيارة تصعد طريقا جبلية . قميص ممزق . قيود ، أنقاض غابات . عمال جياع . قيود . مخابرات . دورية مخابرات . سجن . حديقة عامة . بيت . مخابرات. زوارق مخابرات . عسكر . مخابرات . مخا ... »

أخرج من ذاكرتي واسـأل الطفلة عن القمر فتشير الى الشمس ، أسأل الطفلة عن الشمس فتشير إلى لعبة في يدها ، أسأل الطفلة عن اللعبة التي في يدها فتشير الى قطعة نقدية في يدها الأخرى . أسأل الطفلة عن القطعة النقدية فتشير الى

الشمس التي تغيب ، أسأل الطفلة عن الشمس التي تغيب ، تسألني عن نفسي ، فأطلق مخيلتي أمام عيني الطفلة :

« فضاء . بلاد مسكونة بالضباب والدخان . أشلاء . رايات حمر . ماركس . عائشة . خضراء . خضراء . حمام على الأكتاف وعصافير في الأيدي . أحلام الصيادين وآمال العمال . معاول . صنوبر مغســول بالمطر . بلاد كالفضاء المعشب . آمال الماء الشفاف . الى ... »

تبتعد الطفلة عني . أراها تنأى وراء شجرة فأشير لها بيدي فتبتعد . أمــد يدا الى جيبي وأخــرى إلى مخيلتي وأخرج باليدين أفراحا وألعابا وكلمات وأقلاما ملونة وكرزا وبحورا وحمائم وأطلقها في المســافة بيني وبين الطفلة التي ترفع يديها وتبتسم في مشيتها نحوي . أراقب المشهد التالي :

الطفلة التي لا أعرف أباها أو أمها تسير إلي أنا الرجل الكبير الذي يسكن مساء من الكلمــات والأشجار ، وأنا الرجل الكبير الذي يسكن مســاء من الكلمات والأشجار أسير باتجاه الطفلة التي لا أعرفها ، وحتى الآن ما زلنا نسير هي وأنا ــ دون أن نلتقي .

١٩٧٩

مَغيب الشمس

.... وها نحن الآن ، مساء اليوم الرابع بعد غياب العجوز ، نجلس في المقهى صامتين ، وأمامنا ، قرب جدار الخربة تقف الكلاب صامتة ، بينما المجنون متكىء الى الجدار الخرب وعيناه ترنوان إلى الشمس التي تغيب في البحر .

★ ★ ★

صرنا كل مساء ، وقد أصبحنا عاطلين عن العمل بعد ركود الحركة في المرفأ ، نجلس في مقهى الشاطىء الأزرق نشرب القهوة ، ونتحدث عن السفر إلى السعودية والخليج ، أو أي مكان ، ونتفرج على غروب الشمس والفتيات المتنزهات ، وذاك العجوز الذي يأتي كل مساء الى الخربة حاملا سلة مملوءة أطعمة يلقيها للكلاب المنتظرة ، وللمجنون ينام في الخربة ..

كانت مجموعة الكلاب الشــاردة والمجنون يجتمعون، مثلما نجتمع نحن العــاطلين عن العـــل . كل مســاء على الشاطىء ، قرب جدار الخــربة ، بانتظــار العجوز . وكان العجوز يتأخر ، مع الغروب، كان يأتي حاملا زوادة الكلاب والمجنون . وما أن يصل حتى تتحلق الكلاب حوله، وبحركة أمست متقنة ومعروفة لنا ، كان ينــزل السلة من يــده . يضعها على الأرض ، يسد يده فيها ويخرج أصناف الطعام . يضع الطعام على الأرض ، تبدأ الكلاب في الأكل والعجوز يتفرج . بعد أن تنتهي الكــلاب يداعبهــا قليلا ، تذهب ، فيضع يده مرة ثانية في السلة ، يخــرج صحنا ، صحنين ، وأحيانا ثلاثة ، يعزم المجنون ، يبدآن في الأكــل معا ، بعد الطعام يشعــل وابورا صغيرا . يغلي شايا ، يشربان معا ، ويدخنان ، وقبل أن يذهب يخرج من جيبه سجائر ، ويناولها المجنــون الصــامت .

أما نحن ، وقد تعبنا من البحث عن عمل ، ومن مشاريع الهجرة فقد كنا على عادتنا كــل مســاء ، نأتي إلى المقهى ، نتفرج على الغروب والفتيات والناس والعجوز والكلاب . أحيانا كنا نسخر من أنفسنا ، ومن العجوز . كان يوسف

يقول : لو كان لنا عجوز يطعمنا هكذا ، وكان حسين يقول: لو كنا كلابا ، ومحسن كان يقول : من هو المجنون الحقيقي منهما ؟ ومحمد قال مرة : العجوز هو الكلب الكبير • أنا كنت أقول : لكل انسان جنونه الخاص • كان لكل منا تعليقه ونكتته وقوله الذي يتناسب مع درجة ضجره وفقدانه الصبر ، لكن العجوز استمر في إطعام كلابه ومجنونه مثلما استمرت أمسياتنا وتعليقاتنا وبحثنا عن العمل •



هذا المساء اجتمعت الكلاب والمجنون قرب جدار الخربة ، واجتمعنا في المقهى • غابت الشمس وما ظهر العجوز ، تحلقت الكلاب صامتة حول المجنون المتكيء الى الجدار وما ظهر العجوز • أضيئت مصابيح الشوارع وظهر القمر وما ظهر العجوز • دخل المجنون خربته ، وتفرقت الكلاب وما ظهر العجوز • تركنا طاولتنا وسرنا في الشوارع صامتين وما ظهر العجوز •

١٩٧٨

المعزوفة الجميلة

بطيئاً متلجلجاً يتصاعد اللحن ، والعازف العجوز حائر في اختيار أي الألحان سيعزف هذه الأمسية ، بينما عيناه مثبتتان على صحن نقود فارغ ، لكن العازف العجوز ما يلبث أن يلتقط بداية لحن جديد يتصاعد ناعماً اسيان ، يبوح دون شكوى ، ومع اللحن يعود العجوز الى نفسه فيتذكر أعماراً وبلاداً عرفها ، ويرى جبالا من الصنوبر والسنديان وسهولاً من القمح والعشب ، يرى العجوز آماداً من الزرقة فوقها يدرج طفل حاف ، ثم ينمو الطفل ويتصاعد اللحن أعلى ، فيرى العازف العجوز ابنة الجيران تخطر أمام البيت ، ثم يراها تقف في النافذة وعلى الباب ، يرى العجوز نفسه يزور (أرواد) برفقة ابنة الجيران • يرى ثوبها الأبيض ويتصاعد اللحن أقوى ، فيرى العجوز نفسه شابا في احدى المظاهرات ويسمع صوته هاتفاً تسقط فرنسا ، تعيش سورية ، ويمتد اللحن ، ويسمعه المتحلقون حول العازف العجوز ، ويصبح أميلَ للفرح ، فيرى العازف أعلاماً ترفرف وشباناً وفتيات

يدبكون ، وتختلط احتفـالات الاستقـلال بعرسه ، يرى العجوز فتيات جميلات ، يرى « جميلة » ، ويضحك اللحن أكثر فيرى العجوز نفسه يعانق جميلة ، ثم يرى طفلة تحبو بين المتعانقين • يصمت اللحن لحظه دون أن يخرج العجوز الناي من فمـه ، ودون أن يلاحظ في شروده تكـاثر عدد المستمعين المتحلقين حوله • يحدق العازف ساهما ، ومن خلف زجاج نظارته القديمة ، فلا يرى في الحديقة العـامة والناس الا امتدادات من الزرقة والخضرة، ولا يسمع شيئاً سوى صوت النوارس فوق البحر الخريفي يختلط بصوت نايه الذي يروي له أيامه •

آناً يعود اللحن ، فيرى العازف العجوز نفسه في زنزانة منفردة ، ويرى سجن المزة وقمة الجبل ودمشق ، وبعدها يرى نفسه يشرح لتلاميذه قصيدة في حب الوطن ، ثم يسمع نفسه يخاطب تلاميذه في درس الانشاء « تكلم عن مشكلات حارتك » يتحول آنين الناي الى بحة ثم تمتد البحة وتبتسم وبعدها يعود اللحن ويخبو فيرى العجوز نفسه معتقلاً يغني مع رفـاقه في السجـن :

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد السجن الا ضوء فجر يتسامي

يتعالى صوت الناي حماسياً واثقا ، وبعدها يضحك الناي ويرى السجين امرأته وأطفاله الثلاثة يستقبلونه في البيت ، ثم يرى نفسه مرة أخرى طفلاً يركض في جبال ووديان قريته . وبعدها يمتد صوت الناي ويتطاول فيرى العجوز نفسه معلما يجوب قرى سهول الجزيرة ، ويركض اللحن حتى يصل بحر اللاذقية ، فيرى العجوز نفسه مع تلاميذه وأسرته مجتمعين على شاطىء (البسّيط) ، ثم يصعد اللحن ويتسلل بين غابات (الفرلّق) وعندها يقف اللحن نصبا على قمة الجبل الأخضر ، فيصمت العجوز ، والناي باق في فمه، بعدها يعود الناي شاكيا متألما ، فاللحن قد عاد إلى سجن المزة ، وها هو اللحن يخرج من السجن ، والعازف يطرد من عمله فيعود إلى هوايته القديمة ، وتتحول الهواية إلى مهنة ، ويصبح معلم المدرسة عازف ناي في الحديقة العامة .

يصمت الناي . وينظر العازف أمامه فلا يرى في الجموع المحتشدة وأشجار الحديقة سوى زرقة البحر وخضرة سهول

الجزيرة ، وشيئا فشيئا يتضح لعينيه امتــداد أحمر يصل
زرقة البحر بخضرة السهول ، فيتعالى صوت الناي فرحاً .
ثم يبدأ اللحن في العودة الى مستوى أخفض وأهدأ ، بعدها
يبدو اللحن وكأنه قد بدأ يعود الى تلجلج البداية وحيرتها،
والعجوز مع تباطؤ اللحن ينحني ويهوي بطيئاً نحو الأرض
التي ما لبث أن استلقى عليها جثة مبتسمة بردت دماؤها ،
على عينيها نظارتان ، وفي فمها ناي لم تبرد الألحان والدماء
في عروقــه .

١٩٨١

عائشة.. أحبّك

الوقت قبل المغيب ، وفصل الربيع في أوله ، وها قد حانت أوقات عودة النـاس إلى شاطىء البحـر بعد رحيل الشتاء ، وأنا يائس أحمل في نفسي سأم حياة تتكرر وتعب قصة حب خائب والاحساس المرير بأنني أتلفت عمري وهدرت حياتي هبـاء .

أغلقت المذياع منذ بدأ المذيع يقرأ نشرة الأخبار وخرجت من غرفتي فقادتني قدمـاي الى حيث تقـودانني كل مساء لا مطر فيه ، الى البحر . لم يكن هنـاك ما لم أره قبلا ، فالبحر ما يزال هو البحر الرحب اللانهائي ، الجميل عندما يكون المرء مرتاح البال ، وهو الكئيب المغلق بالأفق عندما يكون الانسان مهمـوماً ، تعباً ، والنـاس يسيرون على شاطئه غير مبالين يتحدثـون ويراقب بعضهم وقلما ينظرون إليه ، ذلك الهـادىء المستلقي عند أقدامهم ككلب شارد ،

أو الى غيمة شاردة فوقه. أو الى شمس تغيب أو الى زورق مهجور على الرمال ... ومثل غيري أسير على الرصيف البحري من الشمال الى الجنوب وأعود من الجنوب الى الشمال، لكني وكسابق الأماسي ، أقف وسط طريق العودة ، وقت غروب الشمس ، أتأمــل هذا المشهد اليــومي ، الأزلي : مشهد الشمس وهي تغيب . مئــات المرات والأماسي راقبت هذا المشهد الوديع ، الجليل ، الحزين ، الساكن ، الشفاف ، ... وكل مساء أرى غروبا جديدا لا أعرف ما هــو ، فآتي في اليوم التالي أبحث عن غروب الأمس لألقى غروبا جديدا ، فأمضي وقد شغلت بجديد آخر .

ومثل كل غروب ، هاهي الشمس تبدو قصية ونائية ثم هاهي تصفرّ ، ثم يسيــل لونها متدرجــا من الأصفر إلى الوردي فالأحمر الشفاف فالأرجوان ، وكل تلك الدرجات اللونية تنعكس على سطح الماء ، وفي الأفق ، فيتلوّن المدى بكل الألوان ، وخلال ذلك تقترب الشمس من نهاية الأفق ثم تبدأ النزول في الماء على مهل فتبدو أولاً وكأنها تسيل على مدى البحر، ثم تتحول إلى قبعة بحار أروادي ، ثم تصبح قرنفلة صفراء وبعدها اصبعا ناحلة مرفوعة الى أن تختفي

من الأفق وتغوص في الماء مخلفة بقـايا حمرة شفـافة تخبو وئيدا وتتحول الى الحمرة البـاهتة فاللون الرمادي الذي يدكن متمهداً ثم يعم الأفق . وعندها أتطلع ورائي وأمشي إلى المقهى لأشرب فنجان قهوة ، فما الجديد في هذا الغروب؟ وما الجديد في هذه الحياة ؟! وما الجديد في هذي المدينة أو هـذا البحـر ؟!

مثل كل غروب ها أنذا أقف : أمامي شمس تطفأ في الماء، وخلفي البشر السائرون والبنـايات والجبال . أتأمل غروبا أراه كل يوم دون أن أكتشف سره أو مكمن الغرابة فيه ، وأفكر بحياتي الضائعة ، وبالناس والعمل والبلاد والشمس والبحر والحب و .. و .. ها أنذا قبل أن أستدير وأمشي باتجاه المقهى ، أسمع صوتا وكلاماً أتذكرهما جيدا :

ــ ما تزال على عادتك تراقب غروب الشمس ... أما قلت لك منذ زمـن ، استيقظ باكرا وتفـرج على شروق الشمس ؟

ألتفت فأراها : عائشة . إنها عائشة : والآن سأحدثكم عن عائشة :

تعارفنا منذ خمسة أعـوام وكنت قـد أنهيت دراستي الجامعية وعينت مدرس فلسفة في ثانوية بلدتي ، أما عائشة فقد كانت مدرسة جديدة أتت من القامشلي لتدريس اللغة الانكليزية في طرطوس . تعارفنا في المدرسة ، وبعدها تزاملنا وتصادقنا وصرنا نذهب معاً الى الرحلات والمقـاهي وإلى ارواد والدريكيش أيـام الربيع المشمسة ، بل لقد أصبحنا نتبادل الزيارات البيتية ، والزملاء صاروا يلمحون إلى قصة حب بيننا . وأنا بدأت أشعر أنني أحبها ، وأنها تحبني، حتى أننا تغازلنا أكثر من مرة ، وكـان من الممكن أن نعيش معاً قصة حب وربما أن نتزوج ، بل إنّ عائشة قالت لي مرة ، وكنا نتفرج على قلعة ارواد « أحبك يا علي » . أنا كانت لي أحلامي ومشاريعي التي منعتني من الانسياق مع عواطفي ، منعتني عن أن أقول لها تلك الكلمة التي كنت أعتبرها مقيدة وملزمة لي ، كنت أحلم بالذهاب إلى أمريكا لمتابعة دراستي، لكني لم أذهـب ، وكنت أحلم بأن أتابع مناقشـة بعض المشكلات الفلسفية التي أثارتني وقت الدراسة ، لكني لم أقرأ شيئاً بعد التخرج ، وكنت أحلم بالتجـول في العالم ، لكني لم أزر حتى لبنان ، وخلال سنوات خمس نسيت كل

أحلامي وما عدت أفعل شيئاً سوى التدريس وهذا المشوار المسائي على شاطىء البحر ، حيث أراقب الشمس وهي تغوص في الماء ، وكأنني أراقب عمري الذي يغرق في الزمن والتدريس وهذهالمدينة الخامدة ... وهكذا ذهبت عائشة.
تركت طرطوس بعد أن نقلت إلى مدينتها عند انتهاء العام الدراسي ، ولم أسمع منها شيئاً إلا تلك البطاقة التي أرسلتها في بداية افتتاح العام الدراسي الأول بعد رحيلها. لقد كتبت هذه العبارة فقط :

« لو أنكَ قلت لي مرة واحدة « أحبكَ » لبقيت في طرطوس كلّ عمريَ » .

كثيرا ما سألت نفسي هذا العام : لماذا لم أقل لعائشة « أحبك » ؟ لماذا لمأذهب خلفهاإلىالقامشلي ؟! لماذا قايضت هذه الكلمة بأحلام ومشاريع أقف كل غروب على شاطىء البحر مديراً ظهري للبشر أتفرج عليها وهي تغرق في الزمن والماء مع شمس تصغر وتصغر وتضيع ، تضيع كعمري في هذا الماء الهادىء ، الراكد ، غير المبالي ؟ لكنني هذا المساء أرى وأسمع عائشة تقول :

ــ ما تزال على عادتك تراقب الشمس .... ؟

وقبل أن تكمل جملتها التي أعرف هتفت :

ـــ عائشة ... أحبك

١٩٧٩،

صَباحُ داكن.. أبـيَض

ينكشف الزمن ويضيق ، واللحظة تصبح سم إبرة بينما حسين عبد اللطيف يحاول العبور من كوابيس النوم إلى صباح جديد يشبه كل صبـاح :

فتح عينيه ، وكانت هنـاك ظلمة ، أشعل الضوء قرب رأسه وأدار المذياع ، فخشخش الصوت منبئاً أن الاذاعات لمّا تبدأ ، نظر الى ساعته : كانت الخـامسة ، فساءل نفسه « لماذا استيقظت باكرا هذا اليوم ؟ » .

أمس لم يفعل حسين عبد اللطيف شيئا يختلف عمافعله أول أمس . تعب من الجلوس في المقهى ، ولم تكن لديه رغبة في حضور السينما فأشتـري مجلة « المستقبـل » وجريدة « الثورة » وعاد الى البيـت . تصفح الجريدة لكنه شعر بالنعاس سريعا فنـام ، وها هو الآن مستيقظ وقد قام إلى المطبخ يغلي ركوة قهوة ويساءل نفسه « كيف سينقضي هذا

اليوم، وماذا سأفعل ؟! » لكنه ما يلبث أن يسخر من سؤاله، فالجواب معروف : سيذهب إلى العمل وفي الطريق سوف يرى وجه المرأة الحامل مسرعة إلى وظيفتها وتينك الفتاتين اللتين يراهما معا كل صباح ، وربما سيرى ذلك الوجه الجميل الذي يراه أحيانا والذي يتمنى أن يتعرف إلى صاحبته ، وبالتأكيد سيرى العجوز القاعد أمام المدرسة الابتدائية يبيع الحلوى للتلاميذ .

غلت القهوة فصب فنجانا وهو يتساءل :

« ما الذي أتى بي الى دمشق ؟ لماذا لم أبق في بانياس ، لو وجدت عملا في بانياس لما جئت . كان أفضل لو بقيت هناك . أفضل من العيش هنا . » أشعل سيجارة وبدأت صور الناس والماضي تلوح في الذاكرة :

محمود الذي كان يقوم معه برحلات على الدراجة يزوران القرى المجاورة .

يوسف ومروان اللذان كان يذهب معهما للعمل صيفا في مقاهي جبل لبنان . مهى الجارة التي عرف في زيارته الماضية لأهله ان لها الآن أربعة أولاد .

ابنة صاحب المقهى في فاريـا .

وو ... وو ... و ....

... وأحس بضيق ، وبقلبه وقد صار طفلاً قبض عليه أب قاس ، فتمنى لو استطاع العودة للنـوم حتى السابعة وبعدها يذهب الى العمل .

« سأذهب اليوم الى العمل ، وسنتكلم في السياسة ، فؤاد سيأتي بالأخبار ، ومحمد سيتكلم عن برامج التلفزيون وأم هيثم عن الغسالة والأولاد، ويوسف سيشتم الحكومة. مللت هذه الأحـاديث والأوراق والمراجعين . لو كنت في بانياس أتنزه على البحر أشتغل صيادا أشرب القهـوة على البحر ، أمشي في الشمس الصباحية ووو .. و ..

عاد واندس في فراشه ، وبجـانبه ركوة القهـوة وهو يحس بحنين يستيقظ للأصدقاء والبحر والماضي والطفولة وبدأ يتذكرهم واحداً واحداً :

أحمد بقي في بانياس وتزوج
البحر في هذه ايام رائق وجميل
محمود صار بحارا على ناقلة فقط
السهول الساحلية خضراء هذه الأيام
مروان في السجن ولا أحد يعرف متى سيخرج .

يوسف صار مقاولا

« أنا صرت موظفا في دائرة النفوس »

أشعل سيكارة وأخذ يتساءل :

بعد سنوات كيف سيكون الحال . أولئك الذين عشت معهم في شبابي تفرقوا والذين أعمل معهم الآن ، هل سنبقى معا ؟ ماذا سيحدث لهم ؟ ثم أخذ يفكر بالذين يشتغل معهم وكيف يمكن أن يصبحوا بعد سنوات :

فؤاد سيصبح صاحب كباريه حتماً وربما قوادا ،

أم هيثم ستصبح أكثر سمنة وشبقاً ولن تترك الوظيفة

محمود ستضبط سرقاته ذات يوم أو سيعلو في المناصب

أبو سعيد •••• هند •••• نصوح •••• سعاد ••••

و •••• و •••

وعاد إلى نفسه « أحس نفسي منقبضاً ، رأيت أحلاما مزعجة ولا أتذكر الآن منها شيئاً » • دارت عيناه بين جدران الغرفة « الى متى سأظل أسير أربعة جدران تكاد تتلاصق ، « تناول الجريدة وعاد يتصفحها • رماها وتناول مجلة المستقبل • تفرج على صور النساء في الصفحات الأخيرة فشعر برغبة جنسية في امرأة • تذكر سعاد التي تشتغل في الغرفة الثانية من دائرته • رمى المجلة وسعاد تتسلط

على مخيلته . نظر الى الساعة ، كانت قد بلغت السادسة .
فتح المذياع وسمع اذاعة لندن . كانت تتحدث عن السادات
وبيغن وكارتر . أحس أن الاذاعة تتكلم عن قضية في المريخ .
أدار إبرة المذياع وتمنى أن يجد صوت فيروز في محطة ما .
أشعل سيجارة رابعة وسأل نفسه « هل سأمضي العمر
هكذا ، في غرفة صغيرة ، في مقهى ، في مطعم ، في دائرة ، في
بلاد ليس فيها شيء ؟ » تذكر جاره في بانياس والذي كان
وحيدا يصرف كل دخله من بيع « غزل البنات » للأطفال على
اطعام الكلاب والقطط وصبية الحي . ساءل نفسه « هل
سأصبح عجوزا مثله ، شبه مجنون يغني ويطعم الكلاب
والقطط ؟ » كان صدره يزداد انقباضا . تناول الجريدة .
تفرج على الكاريكاتير ولم يستطع الابتسام . ألقى الجريدة .
تناول المجلة ، قلب بعض صفحاتها . رماها . صب فنجان
قهوة ثالثا ، أشعل سيجارة . دون انتباه تناول الجريدة
وقلبها ثم رماها . نظر حواليه كانت الجدران العارية تحاصره .
أزاح اللحاف ، قام ، لبس في رجله . مشى باتجاه باب
الشرفة . فتح الباب ، خطا نحو الشرفة المطلة على حديقة
للجيران ، تعبأت عيناه بلون ابيض ، تذكر أنها شجرة
المشمش التي كان يسرق ثمراتها الموسم الماضي عن شرفته .

أحس كأنه قد نسي هذه الشجرة منذ الطفولة في مكان قصي،
وأنه يراها الآن ربما للمرة الأولى . أطال التحديق في شجرة
المشمش المزهرة. وقال في نفسه «نسيت متى تزهر الشجرة!
عاد إلى الغرفة وأحضر فنجان القهوة وأخذ يرشف القهوة
الصباحية وهو يتملى شجرة المشمش البيضاء بينما الشمس
ترتفع على مهل في سماء ربيعية متسعة وصافية الزرقة .

١٩٧٩

العودة إلى البحر

كنسيم خريفي تسيل الذاكرة ملامسة أعماق الطفولة وسطح البحر الربيعي المنثني وقت الغروب ، فينظر يوسف سلمان إلى الأفق الغربي ، ويضع على طاولة المقهى البحري قرب فنجان القهوة سجائره وأفكاره ثم يرنو إلى الشمس التي تغيب كل مساء ، لكنها لا تغيب أبدا ، كزورق يسافر ويعود ، يغرق ويطفو ، كعصفور ...

« جبال من الزيتون . مراكب تتمايل على سطح البحر . بحر هادىء وبنت محلولة الجدائل . المجنونة قرب الزورق . نوارس حرام صيدها . مويجات هادئة تلامس الشاطيء في المساء . أحلام السفر الى .... الى .... »

أشعل يوسف سيجارة دون أن يغادر طفولته التي تركها على هذا الشاطىء في هذه القرية البحرية الصغيرة . « سميرة تقف على الباب وتقول أحبك . أم سميرة تجمع قشور البطيخ لخروفها . عزيزة تشرب القهوة دائما . أبي

يمنعني من الذهاب إلى بيت عزيزة ، أبي يمنعني من اللعب على الشاطيء » . طلب فنجان قهوة وبدأ يرتشف منه مثلما هو يرتشف الآن من ذاكرته .

« غابات من الصنوبر الأخضر . ماء أزرق . جبال خضراء . ارنبة تركض . بلابل . أسماك ، ضياع في الغابة ورجل يدلنا على الطريق . آسيا ... »

كانت الشمس قد قاربت الاختفاء في عمق المدى البحري ، ولم يبق منها الا جزء صغير بدا وكأنه وردة تضمر وئيدا . هب نسيم بارد فنظر يوسف الى الناس الذين يسيرون أمامه على الشاطيء . « لو يأتي أحمد الآن مثلما كان يأتي في الماضي . لو يأتي يوسف أو علي أو مروان ، لو تمر سعاد . سعاد الجميلة . سعاد الخجولة . أين صارت الآن . الفتيات في الصيف . العشب والزيتون . ماء البحر . اللعب في الجبال وعلى الشاطيء . سهرات الليل المقمر . السباحة في البحر وفي النهر . أكل الأعشاب . الخصومة حول البنات . الركض وراء السيارة في أزقة القرية . دخول المدرسة والى .. »

الآن نترك يوسف سلمان مع ذكرياته ونتكلم عنه ، فها هو قد عاد أمس مساءً ، إلى القرية التي ولد فيها ، عاد إليها بعد أن اشتغل بحارا مدة عشرين عاما ، ها هو قد عاد وفي نيته أن يستقر ، أن يفتتح دكانا أو مقهى صغيرا يرتاح بالعمل فيه ، بعد أن تعب من البحر والبواخر والمرافيء ، ها هو الآن قاعد في مقهى القرية الصغير الذي طالما حنّ واشتاق إليه في ليالي البحر أو في مقاهي المرافيء وحاناته ، ها هو قد عاد كسفينة قوية ، طيبة القلب ، تحن الى قاعدتها بعد كثرة الترحال . عاد إلى قريته آملاً أن يجد فيها ركناً هادئا ، أليفا ، دكانا صغيرا وفتاة طيبة يتزوجها ويعملان معا في الدكان أو المقهى . كما شاهد في بلاد زارها .

« سعاد . مروان . أحمد . ليلى . معلم المدرسة . أوصيكم يا شباب بالقراءة . القراءة والسفر ، اقرأوا ولكن سافروا ، سافروا . سافرت كثيرا وتعبت . ماذا حصل للمعلم . أين صار الآن . أما يزال ينصح تلاميذه بالسفر ؟ أين هو ؟ » .

ها هو يوسف سلمان يعود بعد عشرين عاما ، رجلاً في الثامنة والثلاثين لا يعرف هل هو قوي أم ضعيف ،

فقير أم غني ؟ يعود وكل ما يملكه مبلغ من المال وسنوات من ذكريات البحر والمرافيء . لكنه لا يحس قيمة أي منهما . فها هو العمر يمضي سريعا والناس يحاولون عبثا اللحاق بهذا القطار العتيق الذي يرونه بطيئا فيجرون وراءه . وكلما ظنوا أنهم كادوا يلحقونه . تبتعد العربة الأخيرة فيقف الراكض منهكا غير يائس . عندها ينظر الراكض حواليه . مثلما ينظر يوسف الآن . ليرى كل شيء وقد تغير : هاهي القرية قد كبرت . في الماضي كانت صغيرة جدا ، كل بيوتها طينية . كل سكانها يعرفون بعضهم :

« يوجد كثيرون لا أعرفهم . كل البيوت صارت جديدة . لم يعد لي علاقات مع أحد تقريبا . كل الذين كنت أعرفهم تركوا القرية . كأن هذه القرية قد غيرت سكانها . من تبقى لا أشعر بأي مودة معه . كنت أظن انني سأعود الى الناس الذين أعرفهم . ستعود الأيام السابقة ، سنذهب الى الجبال والغابات ونسبح معا في البحر مرة أخرى . الأيام تتغير والناس تتغير .. و »

كانت الشمس قد غابت تماما ، وبدا سطح البحر ساكنا ترقد فوقه أضواء القرية القليلة . فيطيل يوسف سلمان التحديق في المشهد وكأنه يراه للمرة الأولى . كانت

الأنوار القليلة تتلألأ كطيور أليفة • رفع نظره إلى الأعلى ، كانت النجوم تلمع كفتيـــات يضحكن • هبت نسمة هواء باردة ، فأحس بارتياح وسلام داخلي وتمنى لو يستطيع الآن أن يكون في غابة أو حانة في طرف قصي من العالم ، قــال لنفســـه :

« ما الفرق ؟ كل مكان من العالم هو طرف قصي بعيد »

رفع نظره الى السماء مــرة ثانية ، كانت النجــوم تومض كفتيات يرمشن بعيونهن • أرسل بصره صوب البحر المظلم • تذكر السفينة التي عمل عليها • تذكر شوارع ونساء وحانات وسفناً عرفها • أحس امتلاءً وتصميما في قلبه • قام ومشى على الشاطيء الرملي • كانت النسمات الباردة تنساب على وجهه بينما كان يفكر في قراره النهـــائي : « سأعود غدا مع شروق الشمس للعمـــل على السفينة ••• العمـــر ما يزال في أوله والدنيـــا ••• » •

١٩٨٠

حبّات اللوز

قال الراوي :

أيها الأصدقاء والرفاق، الليلة سأحكي لكم قصة جديدة قديمة ، قصة حدثت منذ القديم مراراً ، وتحدث هذه الأيام أيضاً . سمعت مثل هذه القصة من أبي ، وأبي سمع مثلها من محدثٍ في حيّنا ، والمحدث روى مثل هذه الحكاية عن جده ، وجد جده قرأ مثلها في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه . أما أنا فلقد قرأت القصة التي سأرويها هذه الليلة صبيحة يوم السادس عشر من شهر أيار من عام ألف وتسعماية وتسانين في جريدة « تشرين » السورية .

الحوادث تحدث وقد تخترع ، وكل راوٍ يروي الحوادث بطريقته ، أو أسلوبه كما يقول أبناء هذا الزمان ، فاسمحوا لي أن أروي لكم قصتي بطريقتي أو أسلوبي ، ولا تعتبروا ذلك خروجاً عن صدق ما حدث ، فحتى الذي

روى الحادثة في الجريدة رواها بأسلوبه ، اسمحوا لي أن أعيد ما قرأت بأسلوبي :

الصباح النيساني مغسول بأشعة الشمس ، مبلل بسطر الفجر ، ومن كتف الجبل ترسل عليا وسعدا بصرهما باتجاه الغرب ، فتريان السهول الخضراء وخلفها يمتد البحر أزرق لا نهـائيا .

ــ ما رأيك يا عليا أن نذهب إلى البحر ؟

هكذا سألت سعدا عليا .

ــ لم أقل لأمي .. قلت لها سأذهب إلى بيت سعدا لنقرأ .

أجابت عليا :

ــ نسير على الطريق ونحن نقرأ ... نمشي على البحر ونعود ونحن نقرأ .

قالت سعدا ، فسألت عليا :

ــ ماذا ستقرأين هذا اليوم ؟

ــ سأقرأ في كتاب القراءة .

أجابت سعدا ، وعندها قالت عليا إنها أحضرت معها كتاب

العلوم . لكن الآن ، وقبل أن تتابع القصة ، سأحدثكم عن قريـة البنتين :

تقع قرية القيسية في السفح الغـربي لسلسلة الجبـال الساحلية ، لا يفصلها عن البحر الا شريط سهلي يضيق عند هذه القرية حتى لا يتعدى عرضه الكيلو متـرين . معظم سكان « القيسية » من أصحـاب الملكيـات الصغيرة التي يزرعونها بالخضروات والأشجـار المثمرة .

أحد الحاضرين قـال :

حدثتنا عن القرية ، لكنك لم تحدثنا شيئا عن البنتين ؟!!

أجـاب الراوي :

لا تعجل .. سأحـدثكم . سعدا ابنـة يوسف العلي تلميذة في الصف الخامس يشتغل أبوهـا في مرفأ طرطوس القريبة لأن ملكيته الصغيرة لا تكفي ، أما عليا رفيقة سعدا في الصف فهي ابنـة مزارع يملك أرضا أكبـر من أرض أبي سعدا زرعها هذا العـام بالفـول كما يملك بسـتان لوز في كتف الجبل ، وآخر لليمون على الساحل .

والآن سأتابع رواية ما حدث :

صبيحة يوم الجمعة الواقع في الرابع من شهر نيسان من

عام الف وتسعماية وثمانين في قرية « القيسية » التي لا تبعد عن مدينة طرطوس أكثر من خمسة عشر كيلو مترا :

ومن كتف الجبل انحدرت الفتاتان باتجاه البحر وهما تقرآن دروسهما على الطريق كعادة تلاميذ القرى والمدن الصغيرة . كانت عليا تسير خلف سعدا . بينما الشمس النيسانية تنعكس على شعر البنتين باعثة الدفء في جسدين طفلين يترقبان ربيعا يأتي بعد شتاء قاس طويل .

ـ انظري ... انظري ... ها هو اللوز قد بدأ ينضج .. انظري هذه الحبات الناضجة .

قالت سعدا تخاطب عليا عندما مرتا قرب بستان اللوز

ـ سنذوق اللوز مباركة هذا العام

ـ تعالي ... لكن اذا رآنا يونس الحسين ؟!!

قطع الراوي سياق قصته وقال :

الآن اسمحوا لي أن أتدخل، وأن أؤجل بقية القصة قليلا، لأقول لكم أن يونس الحسين مالك بستان اللوز ، حتما ستقولون « ما الغرابة أن يكون يونس الحسين مالك بستان اللوز ؟! هنا ما أريده من رواية القصة لكم ، فلقد

سألت أبا البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكـوفي ، وهو شيخ ما زال يضرب في الأرض يعلـم ويتعلـم حتى قابلته ذات مساء في مقهى على شاطئ البحر في طرطوس . سألت هذا الشيخ العالم الجليل عن معنى كلمة « ملكية » فأجابني بما سأتلوه عليكم بالحرف :

« سمعت الزجّاج يقـول :

الملك بالضم هو السلطان والقدرة ، وبالكسر ما حوته اليد ، وبالفتح مصدر . وقيل بالضم يعم التصرف في ذوي العقول وغيرهم ، وبالكسر يختص بغير العقلاء و .... »

أحد الحاضرين قاطع الراوي مستنكرا :

ـ كيف يكون التصرف بالعقلاء على أنهم ملكية ؟ ... هذا والله لا يجـوز .

أجابه الراوي :

لا تعجل يا ابن أخي ، وتابع سمـاع القصـة . فلقد قالت « سعدا » لرفيقتها عندما رأتا حبـات اللـوز الباكرة « سأطلع أنا إلى الشجرة » وطلعت بينما ظلت « عليا » على الأرض تدل « سعدا » على حبات اللوز الناضجة .

ـ خذي يا عليا ... آكل حبة وأرمي الك حبة .. حتى لا آكل أكثر منك .

قالت سعدا ، فأجابتهـا عليا :

ـ أكلت حتى الآن خمس حبـات .. كلي أنـت .. انظري هنـا ...

ولم تكمل « عليا » كلامها ، بل خفضت بصرها المشرئب نحو الشجرة ونظرت باتجاه صوت حركة مبـاغتة سمعته ، لترى محسن بن يونس الحسيـن رافعـا يـده ليقـذفها بحجرة من مسافة قريبة. بعدها لم تر «عليا» شيئا فالشمس اسودت وتحولت الى غيمة داكنة غطت عن عيني « عليا » شجرة اللوز وسعدا والبحر والسهـول .

أما سعدا فلقد رأت بقية ما حدث والخـوف قد شل لسانها وعضلاتها فتجمدت فوق شجرة اللوز :

رأت سعـدا محسـن الشـاب يرتبـك وينحني على عليا الواقعة أرضا ، رأته يحركهـا ويصرخ « قـومي .. قومي ... اذهبي الـى بيتكم » بعـدها سمتعـه يصرخ مناديا أباه ثم رأت الأب يأتـي من حقـل الفول المجاور ، سمعت « محسن » يقول « ضربتها بحجرة ، ولم أكن أظن

أني سأصيبها وانها ستقع فورا » رأت الاب يمد يده الى جسد عليا ويحـــركه كحجرة ، ثم سمعتهمـــا يتشاوران ، بعدها رأت الأب يحضر حجـــرا كبيرا وينهـــال بهـــا على ساقي « عليا » وذراعيها ، ثم رأته يحمل عليا ويرميها على طريق السيـــارات الاسفلتي ، ومن أعلى شجرة اللوز رأت سعدا رفيقتها عليا مهشمـــة وسط الطـــريق وكأن سيارة شاحنة قد دهستها ، رأت (سعدا) كل هذا ولم تست ....

وهنا قاطع أحد المستمعين الراوي قائلا ...

ــ هذا كلام لا يصدق .. مبالغة ... شاب يقتل طفلة في سبيل حبة لوز ... لا بد أن هذا الشاب مصاب بمس ما ... ثم فعلة الأب ! .. هذا لا يصدق .. لعله الجنون ... أو الكذب ...

أجاب الراوي :

لا تعجل ... وتمهل فالولد ابن الخمسة عشر عاما لم يكن يريد قتل « عليا » لكنه قتلها خطأ أو غضبا أو انفعالا لا فرق .. لم يكن يريد اصابتها وقتلها لكنه أصابها وقتلها .. والأب كذلك ما كان يريد تشويـــه الطفلة ، بل كان يريد اخفاء ما حدث ، ثم ان منظـــر دم الطفلة ، ومحـــاولة الأب

تبرئة ابنه .. المجرمون غير المحترفين يرتبكون كثيرا عندما يرون ضحيتهم ، وكثيرا ما يرتكبون جريمة أبشع وهم يحاولون اخفاء الجريمة الأولى .

قال حاضر آخر :

على كل هذه حادثة شاذة .. والد عليا يملك كذلك بستان لوز فهل كان سيقتل ابن يونس الحسين لو رآه يأكل لوزا من بستانه ؟!

قال الراوي :

لا أعرف ماذا كان سيحدث تحديدا لو أن والد « عليا » رأى ابن يونس الحسين يأكل من بستانه ، لكن من يقرأ كتب التاريخ والجرائد اليومية ، ومن يستمع إلى الأخبار والحكايات أو يحضر المحاكمات يجد كثيرا من أمثال هذه القصص ، ألم أرو لكم في الشتاء الماضي قصة حرب البسوس ، وهي حرب وقعت بسبب ناقة ؟! سأذكركم بها الآن ، فقد كان أكثركم غائبا في تلك الليلة الباردة التي رويت فيها القصة .. سأختصر :

كان هناك امرأة أيام الجاهلية في بلاد العرب اسمها « البسوس » وكان لها ناقة اسمها « سراب » تربطها الى

نخلة قرب خيمتها، وذات يوم مر قرب الناقة قطيع من الجمال، فقطعت « سراب » حبلها وشردت مع الجمال الى النبع الذي كانت الجمال ذاهبة اليه لتشرب ، فلما وصلت الجمال النبع وبدأت تشرب رأى صاحب الجمال والماء واسمه « كليب » ناقة غريبة تشرب مع جماله ومن مائه ، فتضايق ورمى الناقة بسهم قتلها ، وعندما سمعت « البسوس » بما حل بناقتها « سراب » قذفت خمارها عن رأسها وصاحت « واذلاه .. واجاراه .. » ثم ذهبت الى الجار الذي يحميها وكان اسمه « جساس » وأوغرت صدره على « كليب » فركب « جساس » فرسه وذهب الى « كليب » وقال له :

« اتقتل ناقة امرأة احتمت بي وجاورتني »

فأجابه كليب :

« وهل تمنعني من الدفاع عن أملاكي ؟ »

وعندها تلاسن الرجلان ، ثم ازداد غضب جساس وحماسه فطعن « كليبا » برمحه طعنة قاتلة ، وعلى أثر هذه الحادثة بدأت حرب البسوس التي استمرت مدة ....

قاطع أحد المستمعين الراوي قائلا :

ـ لكن تلك حادثة وقعت في الجاهلية ، واليوم نحن في القرن العشرين وقد تغيرت الدنيا ، وليس بالامكان أن تحدث الأمور كما كانت تحدث قبل الاسلام .

قال الراوي :

صحيح أن الأيام تغيرت ، والبشرية تقدمت ، لكن بقيت عند البشر أمور ماتزال قديمة ، وأقدم من الجاهلية ، أمور ما تزال تعيد المنازعات والجرائم والحروب نفسها التي كانت تحدث في الأيام الغابرة ... خذوا قصة البسوس ... وقصة عليا مثلا ... ما سببهما ؟! ترى لو لم يكن يونس الحسين يسلك اللوز ، ولو لم يكن « كليب » يسلك الماء ، هل كان يحدث ما حدث ؟! لكني الآن أود أن أسألكم :

هل اقتنعتم معي أنّ الانسان قد يقتل انسانا في سبيل حبة لوز أو ناقة .

أحد الحاضرين خاطب الراوي قائلا :

بدأت أنت تسألنا ونحن أحوج للسؤل .

أجاب الراوي :

أيهـا الرفاق والأصدقاء ...ثمـة اسئلة هي اجوبة ،
فأسألوا تجيبوا .... وإلى الليلة القـادمة .

١٩٨٠

يوسُف.. يوسُف.. يوسُف

عندما انتهت حرب تشرين كـــان يوسف العلي ما يزال في المستشفى ، وبعد شهرين خرج منهـــا ، وعاد الى قطعته ليبدل دبابته التي لم ينج غيره من طاقمها ، وليبدل كذلك رتبته ، من مجند إلى عريف ، مكافأة على شجاعته .

بعد عام مـــن مغادرتـــه المستشفى ، انتهـــت خـــدمته الالزامية ، والاحتياطية ، وعاد الى قريته قرب الدريكيش بمال قليل ورتبة لا تفيد .. كان الصيف في أوله عندما سرح من الخـــدمة ، فاشتغـــل في في أحد فنـــادق الاصطيـــاف في الدريكيش ، وعندما انتهى موسم الاصطياف فقد عمله وتقدم بطلب للعمل في معمل تعبئة الميـــاه المعدنية ، لكنه لم يتلق جوابا حتى الآن . وهكذا نزل الى طرطوس واشتغل في مقهى الشاطىء الأزرق على البحر ، حيث آتي أكثر الأماسي أنا وأصدقائي ، ومع الأيام ، أصبحنا شبه أصدقاء ليوسف ، فعمره قريب من عمرنا ، وهو مرح يلاطفنا ويحضر لنا القهوة

كما نطلبها . عكس عمال المقاهي الذين تطلب منهم قهوة مرة فيحضرونها حلوة ، وبين وقت وآخر يحكي لنا عندما يكون الشغل قليلا ـ بعض الحكايات عن العسكرية والحرب التي شارك فيها ، والأعمال التي تنقل من واحدها إلى الآخر .

اليوم عطلة . وعلى غير العادة ذهبت الى المقهى البحري باكرا ، كان الصباح جميلا ، وكان البحر يخرج من شتاء قاس كثير المطر والعواصف ، قليل الشمس ، ويستقبل ، هذا اليوم ، شمسا ربيعية دافئة يمازج شعاعها اللطيف بقايا برودة عذبة تشعر الانسان بالسعادة والرغبة في قضاء العمر مسترخيا ناسيا كل ما يحيط به .

إلى الطاولة التي نجلس اليها ـ أصدقائي وأنا كل مساء ـ قعدت هذا الصباح ، ولم يكن هناك أحد في المقهى غيري ، كنت مشغول البال قلقاً قليلاً . فلقد خرجت هذا الصباح الجميل من البيت بعد أن تشاجرت مع زوجتي حول تبذيرها لراتبي المحدود ، فأتيت إلى هذا المقهى البحري على عادتي كلما تركت البيت متضايقا . وما إن قعدت على الكرسي قرب الطاولة ، وأمامي لا نهاية المدى البحري

وفنجان القهوة يتصاعد منه البخار الدافيء النكهة ، حتى تسلل هدوء البحر إلى نفسي التي سجت ، وصارت هادئة ومفتوحة كهذا الأفق ، فنسيت الخصام مع زوجتي ومتاعبي . وعادت إلي إحساسات أيام الشباب وخلو المسؤوليات ، أيام كنت أحس بحب غامر للبحر والبشر والشجر والجبال والحياة كلها . ناديت يوسف وطلبت فنجان قهوة آخر ، وبعد أن أحضره ، وأنا في حالتي النفسية تلك ، قلت ليوسف بأن يحضر لنفسه فنجان قهوة ، وأن يقعد لنشرب القهوة معا ونتحدث .

هواء الربيع البحري يلف المدى والبنايات خلف المقهى، والبشر السائرين فيوحّد الكائنات في نسمات الربيع وأثيرية الماء البحري، وما كان لكائن أن ينجو من سحر هذا الصباح، فهذا الربيع البحري الجديد يفرض نسماته وهدوءه على النفوس ، فيشعرها بتآلفها وطيبتها ، يشعر النفس بالحاجة للنفس ، والعين بحاجتها للبحر والمدى، يشعر البحر بحاجته للسفن ، والشجر بحاجته للورق ، يشعر الناس بحاجتهم لبعضهم ، وحاجتهم للبحر والتفاح والصنوبر والشمس . وما كان لي أو ليوسف أن نفلت من سحر هذا الصباح الجميل ، من هذه الحالة التي تلف الكائنات ،

ما كان لنـــا أن نفلت مـــن هـــذه الشمس العذبـــة ، ومن قهوة الصباح .

بدأنا نرتشف القهوة، ونرنو الى البحر والأوشحة البيض في فضاءات الماء الزرقاء ، تحدثنا عن جمال هذا الصباح ، وتساءلنا هل سيأتي أصدقـــاؤنا الآخـــرون ، ومن منهم سيذهب الى القرية في هذا اليوم . حدثني يوسف عن قريته وطفولته فيها ، وعن جمـــال الربيع الآن في القـــرية ، عن متعة السير في الحقول الجبلية في مثل هذا الصباح ، وتمنى لو كانت أرضه تكفيه ليعيش في القرية كل العمر ، أو لو كان لديه نقود ليبني غرفة في الأرض الصغيرة التي يملكها ، تمنى لو يجد عملاً يعطيه دخلاً أكثر ، وبعدها تحدثنا عن الفتيات والزواج ، ثم حدثني عن خدمته العسكرية ، وعن الحرب والدبابة التي كان يقودها، كيف أعطبت وكيف خرج منها مع رفاقه ، وكيف اشتبك بالمسدسات مع المجموعة التي أعطبت دبابته قرب الحمّة ، وكيف فقد رفاقه واحدا واحدا في طريق الانسحاب ، وكيف تسلل مشيا عبر الحدود الاردنية، وكيف التقطه فلاحون أردنيون ، وكيف سلموه للجيش الأردني ، وكيف أدخلوه المستـــشفى ، ثم كيف أعادوه لسورية وكيف

بنى شهرين في مستشفى المزة ، وكيف أهدوه كنزة وكيس حلوى وصوروه في مجلة جيش الشعب وهو يصافح وزير الدفاع ، ثم رفعوه الى رتبة عريف ، ثم كيف سرح ولم يجد عملا ، وكيف اشتغل في فندق السياحة والاصطياف في الدريكيش ، وكيف قدم طلبا للعمل في معمل تعبئة المياه المعدنية ، ثم كيف نزل إلى طرطوس وأتى إلى هذا المقهى الذي يملكه رجل من قريته بدأ حياته ـ وما يزال ـ موظفا صغيرا في التموين ثم صار من أصحاب المقاهي والفنادق وربما يفتتح قريبا مدجنة في القرية وكيف •• و •• و •• و •• و •• ولم نشعر بالوقت يمضي ، فالنسمات رطبة والأحاديث عذبة والبحر الربيعي يغري بالنظر إليه والابتعاد عما حولنا ، كنا طفلين يستعيدان زمنا ويبنيان مستقبلا ويكتشفان جمال الطبيعة والحياة وإلفة الانسان والماء والشمس وحكايات الأشجار والطفولة والعمل • كانت غلالة الربيع المنسوج من عذوبة النسمات والماء وخيوط الشمس تشدني إلى يوسف وتشده إلي وتشدنا إلى العالم • كان الوقت يمضي والناس يجيئون المقهى ونحن لا نحس

شيئا حولنا حتى سمعنا صوت صاحب المقهى يصرخ :

ـ يا يوسف .. ياجحش .. يا حيوان .. هل أنت زبون أم كرسون ؟!

وقف يوسف ، ومعه وقفت ، وكأننا مجرمان ضبطا بالجرم المشهود ، لم يكن هناك وقت لأنظر في عينيه ، ولم يكن هناك وقت لينظر الي . لم أستطع العودة للكرسي . وضعت ثمن القهوة على الطاولة وسرت ، كأنني أهرب . سرت وأنا أفكر بالبحر والربيع والحياة وصاحب المقهى ويوسف ، يوسف الطفل ، يوسف الجندي الشجاع يوسف الحمار، يوسف الرائع .. يوسف .. يوسف .. يوسف .. يوسف .. الـ .... يوسف الـ ....

١٩٨٠

ما الذي لا تعرفه يا يوسف

؟!؟!

في القرية نفسها ، بين الزيتون والسنديان ولدا ، ومع الزيتون والسنديان ترعرعا ، ومثل تلاميذ القرية والقرى المجاورة ذهبا الى الدريكيش بعد الصف السادس .

★ ★ ★

في الدريكيش قضيا فترة الدراسة الاعدادية . وبدأا يتعرفان على طلاب من خارج القرية . بدأا يعرفان أن في الدنيا قرى أخرى غير قريتهما ، وعندما زارا طرطوس للمرة الأولى وشاهدا البحر والسفن والقطارات ، عرفا أن هناك بلادا أخرى على الطرف الآخر من البحر ، أما عندما زارا دمشق في رحلة مدرسية ورأيا سوق الحميدية والجامع الأموي فقد عرفا كيف تكون المدينة الكبيرة .

★ ★ ★

انهما يوسف وفاطمة من قرية القيسية • يوسف وفاطمة ، اللذان ولدا مع الربيع في العام نفسه ، والتقطا الزيتون من الحقول إياها • يوسف وفاطمة اللذان رعيا الخراف سوية ، ومعا سرقا المشمش والعنب ، وذهبا إلى المدرسة في العام نفسه ، إنهما يوسف وفاطمة اللذان كبرا مع الأشجار وتفتحا مع الورود ، وكانا يبدوان في القرية دائمي الخضرة كشجرتي زيتون جميلتين ، كصنوبرتين !



الفصول تتوالى ، لكنها لا تتكرر ، والأيام تدرج في الزمن كطفل ، وتنمو كغابة ، فاليوم غير الأمس ، وهذا الشتاء هو غير الشتاء الماضي ، والربيع الذي سيليه غير الربيع الماضي الذي ولي الشتاء الماضي ، أما في الصيف القادم فستنور القرية بالكهرباء ، وعندما يأتي الخريف وتفتح المدارس فسيكون في القرية مدرسة اعدادية ، ولن يضطر طلاب القيسية للذهاب الى الدريكيش • انها الأيام التي تنمو في الزمن كالبشر ، حاملة الأزهار والأمطار والعواصف

والشمس • إنها الأيام التي تنضج يوسف وفاطمة مثلما تنضج التين والعنب •

★ ★ ★

ليوسف وفاطمة ، لتلاميذ القرى البعيدة وتلاميذ المدينة للصنوبر الذي ينمو ، للمطر والأنهار وكل ما يعشق الشجر والبشر ، للعشب الذي يطل كل ربيع ، للقمح أخضر وأصفر ، للتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، للشباب أخضر كالليمون ، لدورة الأيام والفصول ، كنا نغني ، ومعنا كان يوسف وفاطمة يغنيان •

★ ★ ★

لكل ما يبهج البشر كنا نغني ، كنا نغني ونشعل النيران والقلوب ، معا كنا نغني ونشيد أيامنا ، نشيد قرانا وأحيائنا ، فما الذي جعل الغناء يخفت !! من الذي انفرد يغني على هواه !! ، ما الذي جعل يوسف يغني أغنيته ، وجعل فاطمة تغني بعيدة عن يوسف !! يوسف الذي كان يغني وفاطمة كحمامتين ، يوسف الذي كان ينمو وفاطمة كحبقتين •

★ ★ ★

في الدريكيش سكن يوسف وفاطمة في غرفتين متقاربتين، كانا يتبادلان الخبز والزيتون والكتب . في الدريكيش بدآ يقرآن الصحف والمجلات والكتب والمنشورات ، ما هو علني منها وما هو سري . وبعد الاعدادية في الدريكيش ذهبا الى دار المعلمين في حلب ، وفي حلب ، صارا يريان بعضهما أقل، وصار لكل منهما دروبه وأصدقاؤه وكتبه ومنشوراته . في حلب بدأت فاطمة تبتعد عن يوسف ، وبدأ يوسف يقترب من آخرين ، في حلب تعرفت فاطمة على الكلاسة والسريان والسليمانية ، وتعرف يوسف على المحافظة والسبيل وحي الموتانا، في حلب، اختلف درب فاطمة عن درب يوسف .

★ ★ ★

أنهيا الدراسة في دار المعلمين ، فعينت فاطمة في ريف الجزيرة ، وعين يوسف في طرطوس ، وعندما كانا يلتقيان صيفا في القرية ، كانا يتناقشان ويتبادلان التهم والذكريات والمزاح ويدبكان معا في الأعراس والسهرات ، ومعا حصلا

على شهادة الدراسة الثانوية وهما يعلمان . وبعدها انتسب يوسف الى الكلية العسكرية ، وها هو ضابط الآن ، بينما انتسبت فاطمة الى قسم اللغة العربية ، وها هي ذي مدرسة للأدب العربي في القامشلي ، ها هي حياتهما تمضي ، ويوسف وفاطمة مع حياتهما يمضيان .

★ ★ ★

أهل القرية الذين ظلوا طويلا يقولون : فاطمة ليوسف ، ويوسف لفاطمة ، نسوا الموضوع . ويوسف الذي كان يزور القرية كثيرا في الماضي، صار مقلا في زياراته وعندما يأتي مصطحبا حراسه وسياراته ، يجلس في البيت الذي بناه له جنود يؤدون الخدمة الاجبارية ، منتظرا أن يأتي الناس ليسلموا عليه . ما عاد يوسف يتجول في حقول القرية أو في دروبها ، ما عاد يوسف . وفاطمة بقيت فاطمة . فهل يستغرب أحد تناسي فاطمة ليوسف وتناسي يوسف لفاطمة ؟

★ ★ ★

الأيام تمضي ، والذين كنا نعرفهم ينسوننا وننساهم ، وفي دروب الأيام نلتقي آخرين ، نسير في دروبهم ويسيرون

في دروبنا ، الأيام تمضي ، أحيانا نحسهـا بطيئة كعجوز ، وأحيانا نعجز عن اللحاق بسرعتها . الأيـام تأتي وتذهب ، وتذهب وتأتي ، والناس يذهبون ويأتون ويتغيرون ، لكن ، ومن هو الذي لا يقول : لكن ، وآه من لكن ، لكن ، في بعض اللحظات ، أواخر الليـل خاصة ، وعنـدما تستيقظ الذاكرة ، فتعود فاطمـة صبية جميلة تملأ دروب القـرية وحقولها ، ويعود يوسف شابا جميلا فقيرا فإنهما يتعجبان معا من حال الدنيا ، ويتمنى كل واحد منهما للحظة لو يستطيع أن يلتقي الآخر ، لو يستطيع أن يلعب مع الآخر ، لو يستطيع أن يقبل الآخر ، لو يستطيع أن يلتقط الزيتون مع الآخر ، لو يستطيع أن يتخاصم ويمزح ويتبادل الاتهامات والشتائم مع الآخر ، لو يستطيـع أن يشرب القهـوة مـع الآخر ، لو يستطيع أن يضرب الآخر ... لو ... لو ... لو ، لكن ، وهاهي لكن تأتي مرة أخرى ، لكن ، عندها يعب يوسف بقايا زجاجة الويسكي ، وتقلب فاطمـة صفحة من كتابها ، كما تقلب صفحات أيامهـا .

★ ★ ★

تنمو الورود وتذبـل ، يزهو الزيتـون وقد لا يثمر ،

تخصب الأرض وتجدب، وفلاحو القيسية ما زالوا يتعجبون مما حدث في كرم شعبان ذات مرة . فقد أزهر كرم زيتونه في الربيع ، وعندما انعقد الثمر ، كان نصف الكرم « حاملا » ونصفه الآخر « حارما » مع أن الكرم فلح كله ، وسمد كله، وعشب كله . الفلاحون ما زالوا يتعجبون من هذه الحادثة ويقولون :لله في خلقه شؤون ، فتضيف فاطمة : وشجون .

وكما تحدث الأمـور في القصص ، تحـدث في الحياة أحيانا ، يولد الحدث وينمو ثم يكتمل عبر نهاية غير متوقعة، مع أنها تسري في الأحداث . كمـا تحـدث الأمـور في القصص تحدث في الحياة ، فها هي فاطمة السلمان تقف أمام ضابط التحقيق يوسف حسين ، وها هو يسألها عن اسمها ، عملها ، تاريخ ومكان ولادتهـا ، ماذا تقـول في مدرستها وما ... وما ... وما ... ، فما الذي تقـولينه يا فاطمة ليوسف ، وما الذي لا تعرفه أنت يا يوسف ؟!

١٩٨١

الخـوف الكبير

ـ أستاذ ... من فضلك أشعل لي ها السيجارة

قال وهو يتقدم نحوي متفرسا في وجهي ، ثم مد يده الى جيب سترته ، لكن عيني اللتين لم تجدا في فمه أو في يده أي سيجارة كانتا قد قفزتا عن يده الى الكوفية الحمراء التي يعتمرها، والى صفحة وجهه القاسي . مرتبكا ، ومتلعثماً قلـت :

ـ نعم ... ماذا تريد ؟

لكني لا أدري كيف أو لماذا ركضت . نعم ركضت على الرغم من طولي وعرضي وشواربي ، على الرغم من أناقتي ركضت في الشارع كطفل .

بعد يومين أو ثلاثة ، ظهرا ، عندما كنت عائدا من عملي ، في طريقي اليومي عبر ساحة عرنوس ، حيث يتجمع كل يوم عدد من العاطلين عن العمل منتظرين من يستغلهم ، رأيت ذا الكوفية الحمراء والوجه القاسي يتجه نحوي ، فلم أتسالك

نفسي ، ولم أخجل من أحد ، أو منها ، وركضت ، ركضت كطفل رأى كلبا ، فخـاف .

بعد حوالي اسـبوع ، وبينما كنت أشتـري تفاحا في الساحة نفسها ، أحسست يدا توضـع على كتفي ، وعندما التفت ورأيت الكوفية الحمـراء والوجـه القاسي ، رميت الكيس ، وبكل ما أوتيت من قوة ركضت باتجاه البيت . وخلال شهر بعدها لم أر هذه الكوفية الحمراء ، هذا الوجه القاسي ، لكني بدأت أخاف وأسائل نفسي ، وخاصة كلما سمعت عن حادث اغتيال جديد :

« ماذا يريد مني هذا الرجل ؟ لماذا يطاردني ؟ من دله علي ليغتالني ؟ ماذا فعلت له ؟ كيف تعرف الى بيتي وعملي حتى يعترضني في الطريق بينهما ؟ »

بعدها بدأت أسئلتي تتخذ منحى آخر :

« لماذا يتركون هؤلاء العاطلين عن العمل يقفون هكذا في ساحة عرنوس ؟

لماذا يقف هؤلاء كالكلاب الشاردة في الساحة ؟ أليس بإمكان أي شخص أو جهـة أن تستأجر من بينهم قاتلا .لما لما

هم عاطلون عن العمل ؟ لماذا لا تمنعهم الدولة من الوقوف في
ساحة عرنوس ؟ »

غيرت مواعيد خروجي مـن البيـت والعمـل ، غيرت
الدروب التي أسلكها في تحركي . صرت أخـاف ممن ينظر
الي ، أو ممن أراه أكثـر من مـرة في طريقـي ، أوصيت
استعلامات الدائرة التي أعمل فيها أن لا تسمح لأي زائر
لي بالدخول قبل أن تتصـل بي هاتفيـا ، وأن يبرز بطاقته
الشخصـية أولا . وضعـت على باب بيتي عينـا سحرية ،
أوصيت زوجتي ألا تفتح لأحد قبل التأكد من شخصه عبر
العين السحرية ، أو بعد سماع صوته ، صرت اضطرب إذا
رن جرس الهاتف ورفعت السماعة ، ثم لا يجيب أحد ، منعت
أولادي من اللعب في الحارة ، وأخيرا بعد أن أصبحت حياتي
خوفا لا يطاق ، وكان ذلك بعد اغتيال زميل دراسة قديم ،
مع انني لم أره منذ ذاك الوقت . أخذت اجازة شهر بلا راتب
وقعدت مع عائلتي في قريتي ، وكم حسـدت زميلي الريفي
محسود الـذي ما يزال أهله مقيمين في القريـة فاستطـاع
الهرب اليهم والعيش عندهم ثلاثة أشهر .

بعد حوالي الشهرين من رجوعي الى عملي من القريـة
وكنت قد بدأت أتناسى الكوفية الحمراء والوجه القاسي ،

وأصبحت أمر في ساحة عرنوس في طريقي الى عملي ، وأرى الى كوفيات هؤلاء العاطلين عن العمل والى وجوههم القاسية دون أن أحس بكل الخوف الذي كنت أحسه فيما مضى . رأيته ، رأيت الكوفية الحمراء تتقدم نحوي رافعة يديها كأعزل يستسلم أمام مسلح . بينما ينفرج الوجه القاسي عن ابتسامة ومعاتبة تقول :

ـ يا أخي .. يا أخي .. لماذا تهرب مني ؟ أريد أن أتأكد .. ألست الملازم عماد ؟ ، تغيرت كثيرا ...

عندها ، ابتسمت وتذكرت هذا الوجه القاسي ، بينما تابع هو يقول :

ـ الا تذكر ... ؟ الا تذكر المجند يوسف الذي أنقذك في حرب الـ ٧٣ ؟

عانقته ، لكن قلبي بقي مشوبا بالخوف .

صباح الخير يا فاطمة

ـ الله يصبحك بالخير يا فاطمة

لكن فاطمة لم ترد ، بل انسحبت من الشرفة الى داخل البيت متأففة، أما يوسف فقد تابع دفع عربته متعللا أن فاطمة لم تلحظه وربما لم تسمعه . في صباح اليوم التالي ، كانت فاطمة تشرب القهوة مع جارتها أم نبيل على الشرفة ، وتتبادلان الحديث مع أم طارق على الشرفة المجاورة حول شريط الفيديو الذي شاهدته أمس ، ويتفقن على الشريط الذي سيشاهدنه هذا الضحى ، وبين اصوات المتكلمات تسلل صوت يوسف .

ـ الله يصبحك بالخير يا فاطمة

سكتت فاطمة وأطرقت متشاغلة ، بينما ابتسمت أم نبيل متخابثة وهي تسأل :

ـ غريب !! من أين يعرفك هذا الزبال يا ست فاطمة !؟

★ ★ ★

منذ شهرين ضاقت القرية بيوسف ، والعائلة التي كان يرعى عندها الغنم طوال حياته باعت القطيع والأرض ونزحت الى المدينة ، وبقي يوسف وحيـدا ، وحيدا لا أم ولا أب ولا عمل ، لا شيء ولا أحد ، فماذا يفعل وكيف يعيش ؟؟ فكر وفكر ، وذهب الى الدريكيش وبسلكه وصافيتا وحكى قصته لأهل قريته ، فنصحه أكثرهم بفاطمة : فاطمة أختك يا يوسف . أختك فاطمة . أليست فاطمـة أختك يا يوسف؟ فاطمة . فاطمة ، ولدتما من أب وأم واحدين ، رعيتما الأغنام وسرقتما الزيتون والقمح في الطفولة معاً ، عشتما وتيتمتا وبقيتما معاً حتى تزوجت ابن قريتكما حسين عبد اللطيف الذي صار معلماً ثم مدير مدرسة ثم رئيس دائرة ثم مدير مؤسسة وذا نفوذ ، يدعو إلى القرية في الصيف مدير المنطقة ورئيس البلدية وحتى المحافظ تغدى عنده هذا الصيف مرة. أختك فاطمة يا يوسف كيف غابت عن بالك ؟ عجباً لكأنك نسيت يا يوسف ان لك أختا اسمها فاطمة وان لأختك زوجاً هو حسين عبد اللطيف ؟

وهكذا حمل يوسف سلة عنب ونزل ذات صبـاح الى طرطوس ، الى بيت أخته فاطمة . قرع الجرس ففتحت اله

الباب بنت ريفية متسائلة من هذا الفلاح الثقيل الذي يزعج أسيادها مثل هذا الوقت • سألها عن فاطمة . فنادت البنت معلمتها . وعندما عرفت فاطمـــة الزائر أتت مرحبة . وبعد الراحة والنطور والذكريات حدث يوسف أخته بموضوع بحثه عن عمل . وماذا قال له الناس فوعدته الأخت خيراً . لا بل تحمست وأكدت له أن حسين سيجد له العمل في وقت قريب ، فالموضوع بسيط ، وفعلا تكلمت فاطمة مع حسين عند الظهيرة فقال لها بأنه سيطلب من صديقه يونس شاهين رئيس البلديـــة أن يؤمن عملا ليوسف . وفي كل الأحوال فالموضوع بسيط كما قال حسين •



منذ أسبوع ويوسف يدفع عربته ، يلم الأوساخ ويغني ويتعجب من كثرة المأكولات والأغراض الصالحة للاستعمال والتي يجدها مرمية بين الفضلات ، فقد عينه يونس شاهين في البلدية . ومسؤول التنظيف عين يوسف في حي القصور الجديد ، حيث سكن حديثـــا يونس شاهين وحسين عبد اللطيف وعلي السلمان ، علي السلمان نفسه الذي كان يسرق

الزيتون ويرعى الأغنام مع يوسف وفاطمة عندما كانوا صغاراً، وفي دخيلته ظن يوسف أنهم تقصدوا وضعه في هـذا الحي حتى يظل قريبا منهم ويظلوا قريبين منه ، ومن يعرف فربما احتاج أحدهم غرضـا أو خدمة ، فيوسف على استعـداد لتلبيتها كما كان يفعل مع الجميع في القرية. وعلى كل فالعمل سهل ، وهو مسؤول عن ثلاثـة شوارع فقط ، يدفع عربته فيها ويغني مسرورا ، ويلقي التحيات على الشرفات والنوافذ والبشر :

ـ الله يصبحك بالخير يا علي السلمان .

ـ الله يصبحك بالخير يا حسين عبد اللطيف .

ـ الله يصبحك بالخير يا يونس شاهين

ـ الله يصبحك بالخير يا فاطمة .

صباح الخير .. صبـاح الخير .. صباح الخير أيتهـا الشوارع ، صباح الخير أيها البشر . صباح الخير يا أشجار الرصيف ، وصباح الخير أيتهـا الحقول السعيدة .. أيتها الحقول المنسية ... صباح الخير ... صباح الخير .... صباح الخير، لكنك زدتها يا يوسف ! لكأن الناس ما يزالون يقعدون على المصاطب أمام بيوتهم أو تحت أشجار البلوط

والسنديان والتوت في القرية . لكأن الزمن لا يدور والبشر لا يتغيرون . لكأن .. لكأن ... ... لكأن .. لكن الأمر ما عاد محتملاً بعد سؤال أم نبيل الخبيث « غريب من أين يعرفك هذا الزبال يا ست فاطمة » . الأمر ما عاد محمولاً ولا مقبولاً ، وأنتم يا حسين عبد اللطيف ، يا علي السلمان ويا أستاذ يونس عليكم أن تجدوا الحل . أيّ حلّ .

في بداية الأسبوع الثاني كان يوسف يدفع عربته ويغني دون أن يلقي التحيات على أحد في الطرف الآخر من المدينة .

١٩٨٢

كلّ مَساء .. كلّ مَساء

ومثل كل مساء ، مشى في اتجـاهه اليومي ، مر على دكان « أبي علي » واشترى علبة سجـائر ، دخـل مكتبة « الفجر » ، وتناول جريدة ، دفع ثمنها وخرج • التقى التحية على رجل يعرفه • تطلع إلى واجهة دكان • وصل المقهى • كان المقهى شبه فارغ • انتحى زاويته اليـومية وقعد على الكرسي الذي يقعد عليه منذ ثلاثين عاما • نظر عبر واجهة المقهى الزجاجية الى الشارع • كانت السيارات تعبر مسرعة ، خيل إليه أنه يعرف هذه السيارات واحدة واحدة كما يعرف تلاميذه • مر على الرصيف الملاصق لواجهة المقهى الزجاجية أناس يعرف وجوههم • مرت امرأة تمر كل يوم في مثل هذا الوقت منذ خمسة أعوام • في تمام الساعة السادسة عبر رجل يمر في مثل هذه الساعة منذ عشر سنوات • دخل بائع متجول يبيع كرافتات وجوارب • نادى على بضاعته • لم يشتر منه أحد هذا المساء • خرج • دخل بائع الصحف والمجلات •

خرج • دخل بائع السجائر المهربة • تطلع يوسف الى الشارع
عبر واجهة المقهى الزجاجية ، كانت السيارات والبشر ما تزال
تمر • مرت سيارة خدمة سوداء صـــار يوسف يعرف تماما
ملامح وجه سائقها •مر رجل وامرأة معا ، ومثل كل مساء
كانت المرأة تتحدث بحماس والرجل مصغ • أجال يوسف
نظره عبر المقهى الــذي بدأ يزدحم برواده • على الطــاولة
اليمنى كان « عزت بك » الذي يقعد في مكانه منذ عشرين
عاما • في أقصى المقهى كان يقعد « علي السرميني » الذي
ما يزال في مكانه منذ سبعة عشر عاما • قرب الباب كانت
مجموعة موظفي « مديرية مالية حلب » تتحدث عن الطعام •
راقب يوسف الوجوه « ما تزال تعطي التعبيرات نفسها »
قال في دخيلته وحاول أن يتذكر ملامح هذه الوجوه عندما
كانت شابة • حاول أن يتذكر ملامح وجهه هـــو عندما كان
شابا منذ ثلاثين عاما • نظر إلى ساعته • كانت الساعة قد
وصلت الثامنة والنصف الا خمس دقائق « بعد خمس دقائق
تمر تلك الشابة » تذكر وجهها • قامتها • مشيتها • ملابسها •
امالة رأسها • قبعتها • معطفها • مشيتها• قامتها • وجهها •
خصرها • طولها • رأسها • شعرهـــا • عينيها • وجهها •
أنفها • وجهها • فمها • قبعتها • معطفها • ملامح وجهها •

كانت قد ملأت مخيلته ، وكـان المقهى قد أصبـح مساحة
فارغة . كانت عيناه مثبتتين على الشارع ومخترقتين زجاج
واجهة المقهى ، وما عاد يرى السيارات ولا البشر . ما عاد
يرى الا وجهها . قامتها . ملابسها . معطفها . وجهها الصغير
قامتها الناحلة. معطفها الأبيض. إمالة رأسها المغناج . خصرها
الضامر . منذ عام وهو يراها تمر كل مساء محـاذية واجهة
المقهى الزجاجية . رآهـا في كل الفصـول ، ورآها في كل
الملابس . رآها عابسة ورآها مبتسمة . رآها تمشي مسرعة.
ورآها تمشي متمهلة . أصبح يعرفها كما يعرف الرجل امرأة
عاش معها كل الفصول ورآها في جميع الحالات . في العمل
يتذكرها ، وفي البيت يتذكرها وعبر واجهة المقهى الزجاجية .
كل مساء ، يراها . صار ينتظـرها . ينتظر مشيتها . قامتها
وجهها ، معطفها . وعندما تخطر في البـال أو في الشـارع .
تحجب عن عينيـه ومخيلته التلاميذ ورواد المقهى والبشر
العابرين والسيارات . عندما تعبر ، يعبر هو الى زمن آخر .
خارج المقهى ، يعود شابا . عنـدما تمر بقـامتها ومشيتها
وملابسها ، عندما .. عندما .. عنـدما .. وهاهي تأتي ،
هاهي تعبر الشارع المزدحم ، فاختفت السيارات والبشر .
وصار الشارع مرجا اخضر . رآها تتقدم باتجاه المقهى وتصل

الرصيف الملاصق لواجهة المقهى الزجاجية ، وكفراشة شفافة رآها تعبر واجهة المقهى الزجاجية ، ورأى يدها تحط على كتفه « يا حبيبي لماذا تتأخر في المقهى كل مســاء ؟ » رأى نفسه يقوم معها ، يخرجـان عبر واجهة المقهى الزجاجية ، يحومان فوق الشوارع والمقاهي والسيارات والبشر ، فوق البيوت والاشجار والحقـول ، رأى نفسه مثلهـا شابا في العشرين يقف للمرة الأولى على شاطيء البحر أثنـاء رحلة مدرسية ، كانت يده في يدها ، رأى نفسه يركض معها في غابات الفراق ، رآها ، رأى مشيتهـا ، قامتها ، معطفها ، وجهها ، خصرها ، وجهها ، رآها ورأى نفسه يطيران فوق المدينة كعصفورين ، كسحابتين ، كندفتي ثلج ، كورقتين ، كحبيبين ك ... ك .... ك ..... ك ....



ومنذ هذا المساء ، حدث تغير جديد في حياة يوسف عبد اللطيف ، فقد صار يرى هذه الرؤيا ، ويطير هذا الطيران ، كل مساء ، كل مساء ، كل مساء .....

١٩٨٣

أشجار الجُندي

« يرقد الجنديّ .
تنزل الغابة كي تبكي عليه كل صباح . »
البرتي

كانت الشمس عذبة ، وكان البرد في أواخره ، ففي آذار يبدأ الربيع ويبدأ غرس أشجار الزيتون ، وفي آذار كان دور يوسف في الاجــازة قد حان .

حصل يوسف على اجازة مدتها اسبوع ، ومن حقول الزيتون التي كانت كتيبة يوسف تعسكر فيها أخذ معه ثلاث غرسات زيتون نوعها غير موجود في قريته ، أما من محطة انطلاق السيارات في دمشق فقد اشتــرى يوسف كعكا وحلوى لطفليه ، وبعض الهدايا والألبسة لزوجه وأمه وأبيه .

طوال الطريق كان يوسف يفكر بعائلته وتطاول خدمته الاحتياطية والمكان المناسب لوضع غرسات الزيتون الجديدة ، وعندما وصل مشارف قريته ورأى حقــول الزيتــون التي تتسلق الجبال والتي عاش بين أشجارها أكثر سني عمره ، تذكر

حقول الزيتون الممتدة والتي تعسكر بين أشجارها كتيبته ، وتذكر كيف كانت النيران تشتعل فيها كلما قصفت الطائرات معسكرهم ، وهاهو من أنقاض حقل قصف قبل يومين يحضر ثلاث غرسات بينما أخذ رفيقه محمود خمس غرسات الى ادلب .

تحسس يوسف غرساته الثلاث ، فأحس بشعور كالرضى ، وعند المساء كان قد وصل ورأى طفليه وزوجه وأمه وأباه الذين حكوا له بعد أن تعشوا عن البرد القارس هذا الشتاء، وذكروه بأنه لم يأت وقت قطاف الزيتون، وقالوا له أنهم تذكروه واحتاجوه وقتها ، فالأعمال كانت كثيرة ومتعبة ، لكن العمل تم ، والزيتون عصر ، وهاهو الزيت في الخوابي ، وماذا لو يأخذ معه الى المعسكر زجاجة من زيت السنة الجديدة ؟ لكن لماذا يتأخر كل مرة في المجيء ؟!

حدثهم يوسف عن الاستنفار والحرب وكتيبته التي تعسكر في حقول الزيتون ، حدثهم عن أنواع الزيتون ذي الحبوب الكبيرة وعن أشواقه لهم ولمساعدتهم في قطف الزيتون ، حدثهم عن البرد في خيام العسكر ، والبرد الذي يقتل حتى أشجار الزيتون ، وعن حراسة الليل والنهار

وغارات الطيران التي أحرقت كثيرا من أشجـار الزيتون ، فتذكر الأب أيام الحرب الثانية ، وأشجار الزيتون التي رآها في تونس عندما أخـذوه مجنـدا في الجيش الفرنسي ، ثم تذكرت الأم أحاديث أبيها الذي حدثها عن جدها الذي ذهب في حرب «السفر برلك» ولم يعد، وقالت له ان هذا الجد هو الذي زرع حقل الزيتون في « جبل الديس » ، بعدها شربوا « زوفة » وأكلوا من الكعك الذي أحضره يوسف من دمشق ومن الحلاوة التي اشتراها الأب من طرطوس ، ثم قالت الأم أنها ستذبح غدا دجاجة وتطبخ معها البرغل احتفاء بيوسف ، أما الطفلان فقد ناما بعد أن تعبا من اللعب والسهر دون أن ينهرهما أحد هذه الليلة ، وآخر الليل كانت الأسرة قد قررت زرع غرسات الزيتون في طرف حقل زيتون «جبل الديس» .



بعد أسبوع كانت الاجـازة قد انتهت ، وذهب يوسف دون أن يعود مرة أخرى ، لكن غرســات الزيتون وطفليه ما يزالون ينسون ، وهم الآن كقامة يوسف ، يــوم زارهم آخر مرة .

١٩٨٢

قصة طويلة .. طويلة

كل صباح كنت أراهما، أراه هو آتيا عبر الباب الخارجي للحديقة العامة بعد أن يركن دراجته ، ثم يدخل الحديقة متجها الى المقعد الذي يجلسان عليه يوميا ، وينتظرها ، وبعد حوالي خمس دقائق ، أو عشر على الأكثر ، كانت تأتي هي ضاحكة ، وتقعد بجانبه تتكلم ، وهو يستمع ، أما أنا فقد كنت أتفرج عليهما من مقعدي غير البعيد عن مقعدهما ، أتفرج وأتذكر أيام كنت أقعد مع فاطمة في هذه الحديقة .

منذ عامين وأنا أعيش هذا اللقاء اليومي ، آتي في السابعة وحيدا الى هذه الحديقة ، وهو يأتي في السابعة والربع ، بعده تأتي هي مستبشرة تتكلم وتضحك ، وهو يسمعها مومئا برأسه أورانيا الى وجهها ، أو ضاحكا ، وأنا أراقب ما يفعلان ، أراقب وأتذكر أيام كنت ألاقي فاطمة خفية في هذه الحديقة .

في الساعة الثـامنة الا ربعا كانت تخرج ضاحكة مثلما دخلت ، بعدها بخمس دقائق يتجه هو الى دراجته ، يمتطيها ويذهب ، وعندها أتحرك أنا عن مقعدي وأذهب إلى عملي ، وأنا أفكر بلقياهما غدا وكأني على موعد اتفقت عليه معهما . كأني على موعد مع فاطمة .

ذات صباح ، ومنذ حوالي الشهر تقريبا ، رأيتها تمر في الساعة السابعة وعشر دقائق ، فوجئت بها تدخل صامتة ، وغير ضاحكة من باب الحديقة الشرقي ، الباب الذي تدخل منه كل صباح ، وتخرج عابرة الحديقة من الباب الغربي ، الباب الذي تخرج منه دائما ، ودون أن تلقي مجرد نظرة على مقعدهما وكأنها تعبر طريقها الى عملها ، بعدها ، وفي وقته المعتاد ، أتى هو ، ركن دراجته عند باب الحـديقة ، وقعد ساهما على مقعدهما اليومي .

في الساعة السابعة والنصف رأيته ينظر في ساعة معصمه وكأنه يسائلها عن سبب تأخر رفيقته . بعدهـا رأيته يقوم واقفا ، ثم يمشي دائرا حول المقعد وكأنه يبحث عن شيء ضائع ، أو كأنه يدور حول نفسه ، لا أعرف لماذا أو كيف، قمت أنا عن مقعدي ثم مشيت مقتربا منه ، وللمرة الأولى أرى وجهه عن مثل هذا القرب . كان شابا في حوالي الخامسة

الشاب صديقي منذ أيام بعيدة . وهمست بالقاء التحية عليه والعشرين ، ذا وجه طفولي أليف حتى أنني شعرت أن هذا لكني لا أعرف لماذا سألته عن الوقت ! نظر في ساعته وقال « الثامنة الا ربعا » ثم عاد وقعد مرتبكا . مشيت باتجاهه ثم قعدت قريبا منه . مقابله تماما . كان ينظر الى وجهي وكأنه يلاحظني للمرة الأولى . بينما كنت أنظر الى وجهه وكأنني أرى نفسي عندما كنت في مثل عمره منذ ثلاثين عاما أنتظر فاطمـــة .

بعدها لا أعرف كيف قمت عن مقعدي واتجهت اليه ، ثم جلست الى جانبه ، مكانها ، وبدأنا منذ ذلك اليوم ، نجلس متقاربين على ذات المقعد ، كل صباح .. كل صباح .. كنا نجلس ونتحدث ، نتحدث وننتظر .

١٩٨٣

مَاالذي أتى بنا إلى هُنا ؟

ـ هذه أنت يا عائشة ؟!

ـ هذا أنت يا يوسف ؟!

ـ ما الذي أتى بك الى هنا ؟!

ـ ما الذي أتك بك أنت الى هنا ؟!

ما الذي أتى بهما إلى هنا ؟ كان السؤال قد برق في ذهن يوسف مثلما برق في ذهن عائشة ، وجلسا يتحدثان ويتذكران ، تذكرا حياتهما المشتركة ، وتذكرا حياتهما الخاصة ، تذكرت عائشة أيام كانت تحب يوسف ، وكيف اختلفا ، وكيف أحبت محمد بعده ثم كيف تركت مدينتها الصغيرة ، وكيف اشتغلت ضاربة آلة كاتبة، ثم وكيلة معلمة، ثم سكرتيرة في شركة ، ثم كيف تعودت أن تشتغل أي شيء وتذكر يوسف كيف كان تلميذا خجولا يراقب ابنة الجيران عائشة ، وكيف كتب لها رسالة الحب الأولى ووضعها في علبة كبريت ألقاها أمامها على باب البيت ، وكيف دخل

دار المعلمين وكيف كان يشتغل في الصيف بائعا متجولا وكيف ذهب معلما الى ريف حوران وكان يكتب لعائشة الرسائل من هناك وينتظر العطلة الانتصافية والصيف ليعود ويرى عائشة. تذكرت عائشة كم كانت تكره مدينتها الصغيرة وكم كانت تحلم بمغادرتها الى أي مكان بيروت .. حلب .. دمشق .. أن تترك كل شيء وتعيش حياتها، وكم كان يوسف يشجعها ويبنيان معاً الأحلام « لنترك معاً هذه المدينة الصغيرة .. لنذهب في هذا العالم الكبير .. لنعش حياة واسعة » تذكر يوسف كم كانت عائشة عفوية وطيبة ومتدفقة، كم كانت تحب أغنيات فيروز والركض على شاطيء البحر وقراءة الروايات . تذكرت عائشة وذكرت يوسف كم كان يحب صوت نصري شمس الدين ووديع الصافي والتجول في غابات الزيتون والمجادلة السياسية . تذكرا كيف اتفقا مرة على الزواج وكيف تأجل الموضوع بسبب استدعائه الى الجيش في حرب ١٩٧٣ ، ثم كيف جاءت عائشة للعمل والعيش في دمشق وذهب هو الى حلب ، تذكرت عائشة كم كان يوسف مهذارا مضحاكا وتعجبت كيف تحول ابن الجيران الخجول الى شخصية أخرى . تذكر يوسف كم كانت عائشة تحب الملابس الملونة والعطور وتكره الكلام في السياسة

وتذكرت عائشة شدة إدمان يوسف على السجائر والشاي ، تذكرا مشروعهما مرة بالذهاب معاً الى مصر واليونــان . تذكرت وتذكر .. روت وروى .. روت كيف أحبت بعده واحدا وثانيا ورابعا وخامسا وكيف كانــوا جميعا يكذبون حتى ما عاد الصدق يعني لها شيئا . حدثها كيف أحب واحدة بعدها وثانية وخامسة حتى ما عاد الحب يعني له شيئا ... حدثته كيف صارت موظفة في شركة الطيران ... وحدثها كيف اعتقل عامين وخرج بعدهــا ليصبح مدير شركة .. حدثها كيف قــال له رفيقه مروان أمس سأعرفك على بيت جديد فيه امرأة جميلة مع أن السعر غال وحدثته كيف قال لها مروان بالهاتف سأعرفك على رجــل ظريف ويدفع ، حدثها كيف تعود أن يدفع المال على النساء وحدثته كيف تعودت أن تقبض النقود من الرجــال ، حدثته وحدثهــا ، روت له وروى لها ، روى لها وروت له تذكرت وتذكر ، وتذكرت ، تذكرا وتذكرا .. تحدثا وتحدثا وكانا يحسبــان نفسيهما وكأنهما يلتقيان للمرة الأولى، كان يحس نفسه أنه ذلك الجار الخجول الذي يرمي الرسالة الأولى في علبة كبريت ، وكانت تحس نفسها تلك الجارة الخجول التي تلتقط مرتبكة علبة

الكبريت . وفجأة سألته عائشة السؤال الذي ألقاه عليها عندما فوجيء بها في غرفة الاستقبال :

ــ يوسف . قل ما الذي أوصلك إلى هذا البيت ؟!

ــ متنهدا أجابها :

ــ هو الذي قادك أنت الى هذا الحال يا عائشة ... وداعا ...

١٩٨٥

مــــرآة

صورة كبيرة لسعاد ، ثلاثة صفوف من الكتب ، سرير ، باقة ورد نضرة ، صورة صغيرة لفيروز ، كــوب ماء على الطاولة ، مسجلة ، قنديل زيت أثري ، لعبة طفــل ، ثلاث كراس، صورة لطه حسين ، مجموعة أشرطة تسجيل، صورة محمد الذي اغتاله الاخوان ، لوحة زيتية لفاتح المدرس ، صندوق خشبي مزخرف ، زجــاجة بيرة ، سريره المرتب ، ابريق الشاي ، مجلة قديمة ، صورة يوسف الذي قتل في حرب حزيران ، فناجين قهوة غير مغســولة ، مجسم زورق اروادي ، صحن فيه بقايا عنب ، محفظة ، قميص ، شمعتان على الطاولة ، مصباح كهربائي ، مجموعة أوراق بيضاء ، ملصق حمامة السلام لبيكاسو ، صورة لينين ، تمثال لدون كيشوت وآخر لزنوبيا ، علبة سجائره ، حذاءه ، قطعة قماش ملونة ، بنطاله على السرير ، قميصه على الكرسي ، رسالة حسين المفتوحة على الطــاولة ، نفاضة السجــائر ، جريدة

قديسة ، ابريق الماء ، حمالة الصحف والمجلات ، التلفاز ، المرآة الصغيرة ، بساط يدوي ، خزانة صغيرة ، منشفة ، ميزان حرارة ، مزهرية خشبية وأخرى زجاجية ، معطفه المعلق ، مدفأة المازوت ، مفتاح الغرفة على الطاولة ، صحن نحاسي أثري ، كومة كتب على كرسي ، كومة ملابس على أخرى ، فتاحة كتب ، رواية جسر على نهر الدرينا مفتوحة وملقاة على السرير ، نظارة طبية للقراءة ، الغليون ، حقيبة جلدية كبيرة لحفظ الملابس ، بطانيتان ، .... ، ..... ،

. . . . . . ، . . . . . . ، . . . . . ، ،

★ ★ ★

وكفتاة تلقي نظرة أخيرة على نفسها في مرآتها ، التفت يوسف في لمحة خاطفة الى داخل غرفته ، قبل أن يدفعه خارجا رجلان مسلحان ، فرأى أو تذكر كل ... كل هذا ... كل هذا ... كل هذا ...

١٩٨٣

ليلى .. أين أنتِ يا ليلى؟

اتفقنا يا ليلي ، اتفقنا ، اسمعي لدي غرفة جميلة مبهجة ولها شرفة تطل على حديقة السبكي ، غرفة مستقلة وكبيرة تتسع لك ولي وعندما تلدين طفلا نبحث عن شقة . سنبدأ البحث منذ الآن ، في غرفتي سرير عريض وديوان وثلاث كراسي وعندي راديو . الفراش سيء ، سأعطيك نقودا لتشتري الشراشف على ذوقك .

ـ واذا لم يعجبك ذوقي ؟

ـ لا .. لا ذوقك يعجبني . ألم تختاريني ؟ سنسافر معا في الصيف الى قريتي ، قريتي قرب اللاذقية .. سنذهب في الشتاء الى معلولا ، واذا صار معنا نقود كثيرة سنسافر الى باريس ... أنا أحب أن أتجول في كل العالم ويدي في يد فتاة جميلة لطيفة مثلك .. اسمعي أنا أحب الزجاج اليدوي .. سنجعل كل الأواني زجاجا يدويا ، أعرف مشغلا في باب شرقي .. مشغل أبي أحمد .

ـ وأنا أحب الزجـاج اليدوي •

جيد • لدي بعض الكؤوس والصحون، نحتاج شراشف وأوجه مخدات •• ستشترينها أنت على ذوقك •• أنا لا أفهم في هذه المسائل •• اسمعي أنا أحب اللوحات ، لا تعترضي علي عندما أدفع خمسين ليرة سورية ثمن لوحـة ، راتبي حوالي مائتي ليرة سورية لكن يجب أن تشتغلي •

ـ أصلا لا أستطيع الحيـاة دون عمل •

جيد •• أنا لا أرضى أن أعيش مع امـرأة لا تعمل ، ستشتغلين •• أنا لا أريد نقودك ، أريدك أن تكوني مستقلة في هذا الموضوع •• اسمعي أنا أحب الرحلات جدا ، يجب أن تكوني جاهزة للرحيل والتسكع معي دائما •• أنا أحب المشي ، لا تستغربي إذا قلت لك آخر الليل تعالي نتسكع •

ـ وقتها سأسبقك وأفتح البـاب لك •

ـ جيد •• جيد جدا ، أنا أحب القهوة •

ـ وأنا أحبهـا كذلك ••

عظيم •• سنشرب القهوة معاً كل صباح •• أنا أحب الأماكن العامة ، أحب الجبال والأشجار •• اسمعي يجب أن تحبي أصدقـائي ، لدي أصدقـاء كثيرون •• اسمعي أنا

أنا محسوب على حزب سياسي وقد اعتقل ذات يوم ..
يجب أن تصمدي أنا لا أتباهى أمامك ، لكن يجب أن تعرفي
هذا منذ الآن ..

سأعرفك على أصدقائي ، هناك أربعة منهم لا أستطيع
العيش دونهم .. سأعرفك عليهم ، يوسف الشريف وسعد
تيناوي وابنة خالتي سحر وصديق الطفولة مروان .

ـ سأغار من سحر .. ابنة خالتك هذه .

لا .. لا .. سأحدثها عنك .. هي فتاة لطيفة ..
تزوجت بعد أن أخفق حبنا ولها الآن طفلان ، صبيان .. أنا
أحبها جدا ، زوجها صديقي .. اسمعي ، مروان معه مفتاح
غرفتي ، لن آخذ منه المفتاح عندما تأتين ونعيش معا ..
يا الله كم أتمنى أن نعيش معا منذ اليوم .. لماذا أحببتك
بهذه السرعة ؛ هاهو أول لقاء بيننا وأنا أحكي لك كل شيء
عن نفسي .. بعد اسبوع سنكون معا. أظن أنني لا أستطيع
الحياة دونك بعد هذه اللحظة ، سأذهب الى أهلك غدا ،
حتما سيوافقون .

ـ سواء ، وافقوا أم لا فسأعيش معك .

ها .. لن يجدوا شابا أفضل مني .. معلم مدرسة ،

موظف وابن حكـومة ، لا يشرب ، ولا يدخـن وليس له مشكلات .. اسمعي .. أنا أحب المزاح والسخرية .. وأن تفهمي النكتة .. لا تتضـايقي من النكتة حتى ولو كانت عليك .. أنا أضحك حتى من نفسي ، أحيانا ... المهم أن نسخر من كل شيء .. ما من شيء مقدس .. هذه الدنيا مهزلة .. آه .. نسيت أن أحـدثك عن حسين .. حسين أقضي واياه خمس ساعات ونحن نضحك .. سأعرفك اليه ستضحكين من أحاديثه ومن نكاته المرتجلة .

ـ سأضحك منك وعليك .. يبدو أنك تحكي كثيرا ..

هيه اضحكي .. عادة أنا صامت مع الذين أتعرف إليهم للمرة الأولى ولكني معك أحس حاجة لأن أحدثك كل شيء عن نفسي ، أتمنى أن تعرفيني دفعـة واحدة .. هاتي أول قبلة، نسيت أن أقبلك، لن أستحي من تقبيلك أمام الناس.. أعطني يدك .. ضعي يدك في يدي .. يدك ناعمة ، أتمنى أن تبقى يدي في يدك كل لعمر .. سنعيش هكذا .. يدك في يدي ويدي في يدك .. يا الله يا ليلى كيف أحببتك بهذه السرعة لقـد عشت طويـلا دون فتـاة .. دون حـب .. اسمعي .. لم أر أبي يتكلم مع أمي كلمة حلوة .... لدي حنان كبير للمرأة ، ربما أريد أن أعوض أمي ، ستكونين

أمي وأبي وحياتي .. اسمعي أنت تسيرين حياتي .. أنت ستشترين لي ملابس .. سأساعدك في تربيــة الأطفــال .. آه .. سأساعدك في الطبخ والغسل والجلي . ... و .... انتبهــي الــي ... أنــت ... اسمعي ، .. أنا ... و ... وهــذه .... و لــك ... س .... لــي .... لنــا ... و .... و .... و .... غــدا ... نعيــش معا .... غداً ...



مرة واحدة حدث هذا اللقاء : منذ ثلاثين عاما، ويوسف عبد الحميد الذي أصبح في الستين ، ما يزال يعيش وحيدا، يتذكر ليلى وذاك اللقاء، بينما عيناه تريان الى أشجار الحديقة العامة ، وهي تنمو وتقترب كل عام ، مسافة أطول من شرفة غرفتــه الكئيبــة .

١٩٨٣

عائشة

لا أدري كيف التقيتها ، لكن هل هـذا صحيح حقا ؟
ألست أبحث عنها منذ فارقتها في الحديقة العامة ذات غروب؟
قاصدا أو غير قاصد ، كنت أنظر في وجه كل فتاة أصادفها ،
وأسر لنفسي : عيناها تشبهان عيني عائشة. هذه قامتها تشبه
قامة عائشة ، وهذه شعرها يشبه شعر عائشة . هذه مشيتها
تشبه مشية عائشة . مرة جلست مع عائشة في هذا المقهى .
مرة تغدينا في هذا المطعم . إذا زرت بيت سمير هذه الليلة
قد تكون عائشة سهرانة هنـاك ، إذا زرت مهى في عملهـا
قد أقابل عائشة عندها . إذا ذهبـت الى سينمـا الكندي
الساعة الثالثة بعد الظهر قد أرى عائشة. ثمة حفلة موسيقية
هذه الليلة في مسرح القباني ، عائشة تحب الموسيقى ، وقد
الاقيها هناك . عائشة تحب الرحلات ، وقد تذهب في هذه
الجمعة المشمسة الى معلولا ، فلأذهب الى معلولا . عائشة
تحب تدمر في الربيع ، وذهبت الى تدمر في الربيع . عائشة

تحب الساحل في الخريف. فلأذهب الى الساحل في الخريف. عائشة تحب روايات نجيب محفوظ ، وها رواية جديدة لنجيب محفوظ ، فلاقرأ آخر رواية لنجيب محفوظ . عائشة تحب أكل الفول في الصباح، فلآكل فول في الصباح. عائشة تحب اللون البني ، فلأشتر هذا القميص . عائشة تحب شوارع دمشق آخر الليل، تحب قطف الياسمين عن سياجات البيوت ، ولهذا ترونني يا أصدقائي أسير في الليل وأقطف الياسمين عن السياجات عائشة تحب ... عائشة تريد ... عائشة كانت ... هنا عائشة وأنا .... عائشة ... عائشة .. ومنذ خمس سنوات لم أر عائشة مع أنني متأكد أنها موجودة طوال هذه المدة في دمشق . ثمة أناس أصبحت أعرفهم ويعرفونني لأننا نتقابل كل يوم في طريق العمل ، نلتقي في الصباح والظهيرة ، نتبادل النظرات وفي نفسي أتساءل : ما حاجتي إليهم ، وما حاجتهم إلي ؟ لماذا أراهم ويرونني ؟ لماذا لا أرى عائشة حتى ولو لم نتبادل كلمة واحدة ؟ لماذا أرى ؟ ... لماذا أرى ... ؟ ولماذا لا أرى عائشة وأنا أتوقع رؤيتها في كل خطوة أخطوها وفي كل مكان أذهب اليه .... وهذا المساء رأيت عائشة .

كانت تلاعب طفلا في الحديقة العامة حيث كنا نلتقي كل غروب ونلعب كالأطفال منذ أعوام خمسة . لمحتها عن بعد ، وعن بعد عرفتها . لم أشعر بأي اضطراب ، وربما اضطربت الى درجة ما عدت معها أحس بأي شيء . تقدمت إليها . قالت :

ـ عائشة ..

التفتت . كانت هادئة وكأني غبت عنها لحظات قليلة . قالت :

ـ أهلا يوسف

نادت الطفل :

ـ مروان ... تعال

وتذكرت اننا كنا متفقين ان نسمي طفلنا مروان . قالت:

ـ هذا يوسف يا مروان

حملت الطفل . كان وادعا على صدري وكأنه ابني .

سمعتها تقول :

ـ عانق يوسف

عانقني الطفل وكأنه يعرفني منذ زمن . عانقته وكأنه ابني . سرنا باتجاه كشك بيع الحلوى في طرف الحديقة كما كنا نفعل في الماضي . قالت :

— يوسف ... اشتر لي شوكولا ... لا تنسى مروان هذه المـــرة .

نظرت في عينيها ، رأيتها تبتسم مغالبة ارتبـــاكها ، وأنا متأكد أنها كانت ترى اضطراب يدي وزوغان بصري .

١٩٨٥

المهرّج

.... انهم يضحكون ويضحكون منذ ثلاثين عاما هم يضحكون يضحكـون ان وقفت يضحكـون ان أخفقت يضحكون للنكتة الذكية يضحكون للنكتة الغبية يضحكون ان ضحكت عليهم يضحون ان ضحكت على غيرهم يضحون ان ضحكت معهم يضحكون ان ضحكت يضحكون اذا بكيت يضحكون على النكات والحكايات القديمة يضحكون على الحكايات والنكات اليومية والسياسية والجنسية يضحكون على النساء على الرجال على الأطفال على العرب على العجم على الروس على الأمريكان يضحكون كل ليلة على الباب يضحكون وأنا خارج وأنا داخـل يضحكون وهم خارجون يضحكون وهم داخلون يضحكون ان اختفيت عن المسرح يضحكون ان ظهـرت يضحكون ان قعدت يضحكـون ان مشيت ان وقفت يضحكون كل مساء لا يبالـون ان كنت مفلسا يضحكون ان كنت غنيـا يضحكون ان مات طفلي

يضحكون ان بردت ان جعت يضحكون اذا خانتني زوجتي
اذا طلقتني يضحكون لا يفكرون بما أقول يضحكون ان
هزلت ان عبست يضحكون لا أعرف لماذا يضحكون
يضحكون لا يعرفون لماذا يضحكون على أنفسهم يضحكون
علي يضحكون على أيامهم يضحكون دموعهم تنهمر وهم
يضحكون يضحكون يضحكون كأنهم يبكون وهم
يضحكون علي مني وجهي عادي لماذا يضحكون وأنا لا أحكي
لهم أي شيء لا يعرفونه يضحكون وأنا أحكي عن لياليهم
يضحكون .. ويضحكون ... يضحكون .. يضحكون ..
يضحكون .. يضحكون .. يضحكون لايفكرون ...
يضحكون ... يضحكون .. يضحكون ..

.. وكانت أصوات الضحك وجلجلاته تصك أذني المهرج الواقف وحيدا في غرفة التهيئة والانتظار بين دور وآخر ، تقدم خطوة باتجاه المرآة ليلقي نظرة أخيرة على وجهه قبل أن يعاود الظهور على خشبة المسرح . نظر الى الخيال الماثل أمامه في المرآة ، فرأى ، وللمرة الأولى في حياته ، وجها مكفهرا يكاد الغضب ينفجر في قسماته الداكنة.

١٩٨٤

المحطة

« محطة البابيري » قرأت اللوحة ، وتبعت السهم الذي يحول السائرين عن الطريق العـام الى طريق ترابي خطته عجلات السيارات في أرض جافة رصـاصية اللون . كنت أحاول التدقيق في لون الأرض وشكل تضاريسها ثم مراقبة تفاصيل المكان ، فلعل ذلك ينجح في اخراجي مـن دوامة أفكاري . كنت أقول لنفسي بأنني سأقابل الآن بشرا يعملون ويبنون الوطن في هذه الصحراء ، وعلي أن أخلع هذا الوجه الكالح وهذه الأفكار السوداء ، فلأراقب بعض التفاصيل علّها تكون مدخلا للأحاديث مع النـاس الذين سأقابلهم ، لكن الأفكار كانت أقوى ، كنت أفكر بلا جدوى حيـاتي وضيعتها ، بلا جدوى مهنتي ، بلا جدوى كـل مـا أرى ، وأتساءل : ما جدوى هذا النهر العريض ، وما جدوى هذا السد ، وما جدوى الكهرباء .. سنظل غارقين في التخلف والجهل .. وسنموت غائصين في تفاهات حياتنا اليومية ...

هاهم الناس يولدون ويتعذبون ثم يموتون .. رحلة عابثة لا نهائية ، ويزيد من عبثيتهـا غبـاء هؤلاء البشر وأنانيتهم الصغيرة .. ركضهم وراء مصالحهم .. حروبهم وعاداتهم وأحقادهم .. أكاذيبهم وأحلامهم المستحيلة .. نزواتهم .. حبهم المستحيل .. وبعدهـا بدأت أفكر بسميرة وخلافاتي المستمرة معها .. سميرة التي أحس أحيـانا أنني سأعيش وإياها بدءا من الغد ، لكنها بعد لحظـة تجعلني أحس أن الحياة معها ستكون زيادة في جحيم هذه الحياة ، كنت أفكر بسـميرة لأنها آخر حب لي ، وأتذكر عائشة ، عائشة التي كانت أول حب وأتساءل : لماذا افترقنا أنا وعائشة ؟ لماذا لم نعش معاً كما أرادت هي منذ كنا في الجامعة ؟ .. وتذكرت أنها مرة قالت لي : يـا يوسف أنـا لا يهمني شيء .. نحن طالبان ، ما رأيك لو نسكن معا في غرفة واحـدة ؟؟ أهلك يرسلون لك مائتي ليرة وأهلي يرسلون لي مثلها .. يومها قلت لها انني لا أريد الزواج الآن ، فأجابتني : أنا لا أحدثك عن الزواج .. وتذكرت كم كنت متعنتا ومتعصبا . أيامها كنت أريد من المرأة التي سأتزوجها أن تطابقني في كل شيء ، في دقة مواعيدي ، في أناقة لبـاسي ، في رسمية التعـامل والأحاديث، وحتى في أفكاري السياسية . أما عائشة فكانت

تختلف عني ، كانت فوضوية في لباسها وفي مواعيدها ، كانت تحب الألوان الفاقعة وتضحك بملء صوتها ، تركض في الشارع وتلبس الثياب القصيرة وتدخن بشراهة ، لم تكن تهتم كثيرا بمناقشاتي وآرائي السياسية ، وكانت تسميها ثرثرات فارغة . أذكر مرة أنها دخلت مقصف الجامعة ، وكنا مجموعة من الرفاق تتحدث في موضوع سياسي ، فبادرتني قائلة : ألم تتعب من الثرثرة ؟ .. ما رأيك أن نذهب الى حديقة الجاحظ ، وبعدها الى السينما ؟ .. كانت تناقشني في كل فكرة واقتراح ، وأحيانا تسخر مني ، تسخر من جديتي ومن تنظيمي لحياتي وتقول : أنت شيئا فشيئا ستفقد انسانيتك وستتحول الى ساعة ثمنها مائة ليرة .. هذا أنت .. اختر ... ستكون اما برغيا في آلة واما ساعة رخيصة .. ساعة سريعة العطب ... غدا ستكون موظفا محترما أيها الأستاذ المحترم فلا تستعجل .. عندها كنت أتهمها بأنها فوضوية ، وأنها تضيع حياتها في التفاهات ناسية القضايا الكبرى وقضايا الوطن ، وأهددها بأنني سأذهب في الصيف إلى بلدي ولن أحاول رؤيتها عندما ستبدأ الدراسة في العام القادم .. كانت تضحك وتقول : لا تستطيع تركي ، وعلى الرغم من كل وقارك ورسميتك فأنا روحك الفوضوي .. أنا أعيش في

قلبك .. أنا روحك التي تحاول عبثا تقييدها بهذه الكرافيت التي تلفها حول رقبتك دائما ، أنا روحك التي ستتحرر ذات يوم حتى ولو كان ذلك بعد مائة سنة .. أنا التي ستجدها .. أنا محطتك الحقيقية ... أتعرف لماذا أحبك ؟ .. فأجيبها حانقا : أولا أنت لا تحبينني ، وثانيا لا يهمني أن أعرف ، لكنها تتابع الحديث غير مبالية باعتراضي المرتب منطقيا : أحبك لأنك ما تـزال تبحث عن روحـك .. عن محطتك الحقيقية .. أيها .. أيها .. أيها .. الساعة الرديئة .

كنت أختلف مع عائشة في كل شيء ، وكأننا لا نلتقي كل يوم الا لنتخاصم . كانت متحمسة للنساء ، وكنت أقول : ان هم المرأة أن تجد زوجا ، فكانت ترد : وهم الرجـل أن يجد امرأة .. ما العيب في ذلك ؟ .. أنا لا أحدثك في هذا الموضوع يا فصيح ... أنا أحدثك عن عمل المرأة . فكنت أقول لها أن المرأة لا تستطيع فعل شيء دون الرجل ، وأنها ستظل عالة عليه حتى في الذهاب الى السينما ، فكانت ترد ولماذا لا تقول أن الرجل سيظل عالة على المرأة ؟ .. فالى متى ستظل المرأة تتحمل سخافاتكم وتبجحاتكم أيها الرجال ؟ .. ثم تذهب الى السينما وحـدها على الرغم مـن أنني أكون موجودا في الصالة نفسها .. كنت أحاول أن أقنعها أن الرجل

ليس تافهاً ولكنه يكون طفلاً بين حين وآخر ، وأنه يبحث
عن أم أحيانا ، فكانت ترد : وما علاقة هذا الكـلام بكون
المرأة مستقلة الشخصية تستطيع أن تعمل وتحب على هواها،
فكنت أجيب ساخرا : ولكنها تخاف من الفأر ، فكيف
تريدينها أن تعمل بشكل مستقل ؟ .. وعندها ترد علي قائلة:
أنتم الذين ربيتموها هكذا ، فأرد عليها : أنت قلت أن المرأة
هي مربية البشر ، فترد علي : تحاول أن تصطاد في كلمـاتي
ما يناسبك .. أنت ديماغوجي ، فأقول ثائرا : أنا لا أسمح
لك باستعمال هذه الألفاظ معي ، فتجيبني وهي تضع يدها
على أي شيء يكون قربها وكأنها تريد التقاطه لتدافع به عن
نفسها : أرأيت كيف تظهر شخصيتك المتسلطة ؟ .. لا تسمح
لي ؟؟ ما شاء الله .. مـا شاء الله ومـن الذي ينتظـر
أذنك يا صاحب السيادة ؟ .. عندها أترك أنا ، أو تترك هي
مكان اللقاء وكل منا يقسم انه لن يرى الآخر بعد اليوم ،
لكننا نلتقي في اليوم الثاني ، في المكان نفسه ، مختـرعين
مصادفة أو مناسبة أو مدعين وجوب استمرار صداقة عادية،
أو أذهب أنا اليها حيث تقيم وأبقى منتظرا في الشارع أكثر
من ساعة ، وأنا أرجو صديقتها ليلى التي تقيم معهـا ، أن
تقنعها بالموافقة على أن أراها .. « لاعتذر منها على الأقل »

كما كنت أقول لليلى .

بعد انتهاء الدراسة رجعت عائشة الى القامشلي، مدينتها، وذهبت أنا إلى الجيش ، كبرياء لم أطلب عنـوانها . وهي فعلت الشيء نفسه ، وما عدت أسمع عنها شيئا ، لكني بقيت أتذكرها كل يوم ، وأقارنها بكل فتاة أتعرف إليها . فهل من عجب أن أتذكرها وأنا في دوامة أفكاري السوداء ، وهل يجد المرء للأفكار السوداء من مهرب الا في ذاكرته وماضيه، إلا في أيامه الجميلة الغاربة؟ ... الأيام التي عشناها وبددناها دون أن نعرف جمالها في وقتها ، دون أن نعرف أن أجمل الأيام تكون دائما عندما نعيشها .. الآن أعرف أن أجمـل الأيام ليست تلك التي لم نعشهـا بعد ، وليست تلك التي عشناها فيما مضى ، أجمل الأيام هي الأيام التي نعرف كيف نعيشها ، فلنعش كل لحظة ، وعندها يكـون الماضي جميلا ويكون المستقبل جميلا ، ولكن من أين يأتي الجمال إلى هذه البلاد .. الى هذه الحياة ، والبشر كل يوم يتقاتلون ويكذبون ويخاتلون ويخفقون في الحصول على السعادة ، يخفقون أحيانا في الحصـول على رغيف الخبـز ، فيموت الآلاف جوعـا كـل عـام في بـلاد كثيـرة ، أيـن السعادة وأين ... أين .. ولماذا .. وكيف ... و ... و ... ورأيت سهما ثانيا يشير الى اليمين ولوحـة كتب

عليها : « محطة البابيري : ادارة المشروع » فتوجهت حسب
ارشاد السهم • كانت الأرض ما تزال ترابية جافة خطت فوقها
عجلات الشاحنات التي أراها تحمل أطنانا من الأتربة طريقا
مسهدا ، فعدت إلـى لعبتي القديسـة مع نفسي ، عدت إلى
مراقبة تفاصيل المكان ، لأحضر بعض أسئلتي ، ولأبحث عن
مداخل لمواضيع النقـاش •

كنت أقو مبمهمة صحفيــة ، وذهبت الى المشروع كما
نصحني زميل صحفي• بعد أن وصلت وتعرفت على المهندس
مدير المشروع قال لي : الآن سأوصلك الى جسم المحطة الذي
نقوم بانشائه ، وهناك ستجد من يشرح لك الباقي ، وذهبنا•
رأيت جسما اسمنتيا هائلا والبشر عليه ، كأنهم خلية نحل :
اسمنت ، حديد ، أخشاب ، وبشر تعلقت كالعصافير الجميلة
على شجرة ضخمة ، وكل منهمك في عمله غير ملتفت حتى
للمدير الذي كان يشرح لي بعض المعلومـات الاولية عن
المشروع ، وفجأة سمعنـا صوتا محذرا : ـ اتنبهـوا ••
لا تتقدموا في هذا الاتجاه ••• العوارض لم تثبت بعد •
واتنبهت الى صاحبة الصوت ، كان المتحدث فتاة تشرف
على تركيب مجمـوعة مـن العـوارض •• أبديت عجبي

واعجابي لمدير المشروع على جرأته في تشغيل النساء في مثل هذا الموقع ومثل هذه الأعمال الشاقة كما حاولت أن أمازحه فقال لي بالا أعجب وبأن لديه مجموعة مهندسات وعاملات ، ثم أضاف : والـذي سيعـرفك على باقـي المشروع هو مهندسة .. تعال نشرب الشاي عندها ، ثم تتابعون معهـا جولتكم . دخلنا براكة خشبية ، ذكرتني عندما رأيتها من خارجها ، بالبراكة التي أمضيت فيها خدمتي العسكرية ، فاذا فتاة مكبة على مصور هندسي تتبع مع رجلين وثلاث نساء مخططا تفصيليا ، سمعت مدير المشروع يقول :

مرحبا .. الاستاذ يوسف من جريدة ..

كيف أصف ؟ صدقوني لا أستطيع ، كل ما أذكره اني سمعت عائشة تقاطع تقديم المدير على عادتها في مقاطعة أي متحدث ، وتقول ضاحكة وكأنها تتعمد السخرية مني كما كانت تفعل أمام زملائي في الجامعة :

ـ ألم تتعب من مطاردتي والركض ورائي ؟ .. ألم تنته من الثرثرة والديسوغاجية وصناعة الكلام ؟ مالك لحقتني إلى هذه المحطة ؟ .. في عز الصيف ، وفي مثل هذا المكان وتلبس ربطة عنق ؟ ... اخلعها .. اخلعهـا وإلا ستجعل نفسـك

اضحوكة أمام العمال .. أنت لم تتغير .. أنت ... أنت أنت .. أنا وأنت .. أنا ... أنا .. أنت وأنا ....

ثم راحت تحكي للآخرين حكايات تاريخنا ، حكايات خلافاتنا ومناكداتنا ، وأنا صامت مرتبك . ولا أعرف كيف ، ولا أدري لماذا امتدت يدي الى ربطة عنقي لتخلعها ، ولتلقي بها في سلة مهملات ، قرب كرسي عائشة .

١٩٨٥

خاتمة



خاتمة أو :
أفق موعود :

الزمن يمضي ومعه نمضي • آخر الأيام كانت الأعشاب وما يأتي هو البحر • الرمال لحظتنا ، ولا شيء أحلى من أيامنا المرة ، لكن أين هي الغابات ؟! •

لا تنكروا فنحن ننتظر الأيام كمتسول على الرصيف ، وتحتك يا ثيابنا المهترئة نخبيء الأسلحة والآمال ، نخبيء الورود والكتب ، ونخبيء راية ، راية لك أيتها الحرية •

الزمن هو ما يأتي ، والآتون نحن • مضت أيام كانت الأوجاع فيها تلهو بنا كخشبة في الأمواج • الزمن هو ما ينفتح• تكون أيام يشيب لها الصبي، وتعود العجوز طفلة، فهذا ما يلزم القسح حتى ينضج ، وهذا ما تريده الأقسار • هذا ما تحتاجه الثورة التي تنبلج كنهار •

إني أتذكر : أتذكر بعض الأفكار ، أتذكر أمي والبحر والجبال • إني أتذكر : أتذكر يوم رأيت النوارس في

طرطوس ، ويوم رأيت الأسماك في بيروت ويوم رأيت ليلى في قلبي ، أتذكرك أيتهـا المدن التي رأيت ، فمن يومهـا وأنت تسكنين الحبر والأقلام ، من يومهـا صارت البشر أعشاباً ونوارس • سلاماً طيور البحر ، سلاما ملائكة الماء ، ويا أعشاب الأرض تحيـة •

أيها الرجال ، في كل البيوت ، أيتها النوارس على كل السواحل ، يا نخيلا يسكن الخيال والذاكرة والأيام ، أيتها الطيور البيضاء في زرقة المدى ، أين هو الشاطىء ؟ أين هي الرمال والأجساد والخيام الملونة •••• أين هو الصيف ؟ •

تلك هي الزوارق، لكن أين أنت أيها البحر؟ • بعيد أنت أيها الساحل ! فأين أنت أيتها الطيور البيضاء ؟ هاهي الأرض لكن أين هو التراب

ما الذي تفعله السنوات؟ أين أنت أيتها الحرية ؟ ما الذي تفعلينه أيتها الشموس ، ونحن ، الى أين نمضي ؟

قبلات لعصافير كالنجوم ، لياسمين كالنوارس ، لرجال كالنخيل • لأقمار صيفية وأقمار جبلية نقول سلاما ، وسلاما نقول للعمال ، للبحارة والفلاحين والطـلاب ، سلاما لكم

أيها القراء والكتّاب ، سلاما لكنّ أيتها النســاء ، سلاما ، سلاما ، سلاما .

لبلاد كالصنوبر وسكان كالهداهد يشتعل البحر أزرق ويغني الأولاد والبحارة على الأرض دامية كالقلب ، والسماء صافية كالسريرة ، نرمي القسح والأزهار . على أشجار البلاد وأنهارها ، على كلابها وزوارقهــا وياســينهــا ، على ... وعلى ... وعلى ... نلقي التحيــة ... نلقــي التحيــة ونودعكم ، نودعك يا بلاداً .... كالزيتون ، يا بلاداً ... كالليمون .

المحتوى

الخطيب ، محمد كامل ، بلاد .. كالزيتون ، قصص ،
الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ١٢٨ ص .
قطع ١٤ × ٢٠ مطبعة اتحـاد الكتـاب العرب ، دمشق .
ج.ع.س .

١٥٠٠ ــ ٦ ــ ٨٧

بلاد كالزيتون : قصص ، محمد كامل الخطيب ، ط أ ــ
دمشق : اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٧ ١٢٨ ص ٢٠ سم .
١ ــ ٨١٣٫٠١ خ ط ي ب ٢ ــ ٨١٣٫٠٠٩٥٦١ ٣ ــ
العنوان ــ ٤ ــ الخطيب .
مكتبة الأسد

ع ــ ٥٢٨/٦/١٩٨٨

صدر للمؤلف

قصص :

- الأزمنة الحديثة ـ دمشق ١٩٧٤
- جيران البحر ـ دمشق ١٩٧٦
- النخلة المضيئة ـ دمشق ١٩٧٨
- المدن السحلية ـ بيروت ١٩٧٩
- هكذا .. كالنهر ـ دمشق ١٩٧٦

دراسات :

- المغامرة المعقدة ـ دمشق ١٩٧٦
- السهم والدائرة ـ بيروت ١٩٧٩
- الرواية والواقع ـ بيروت ١٩٨١
- مسائل راهنة ـ دمشق ١٩٧٦
- إنكسار الأحلام ـ دمشق ١٩٨٧


اتحاد الكتاب العرب
Damas دمشق



هذا الكتاب

حب الوطن والطبيعة، هو المدخل الى كتابة القصص التي يضمها هذا الكتاب، وهي بالتالي لوحات قصصية مختزلة ومكثفة تتبادل فيها الشخوص الأدوار توكيداً على مواقف انسانية...

ويتميز أسلوب المؤلف بلغة سهلة وبسيطة، ولكنها موحية، ومفعمة بالعذوبة ورقة الإحساس..

ثمن النسخة ٢٥ ل.س داخل القطر
٣٠ ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق ١٩٨٧